عازف بلا قيثارة

تأليف الأستاذة:

جيهان سرور

بطاقة الفهرسة

تأليف الأستاذة:

جيهان سرور

اسم الكتاب:

عازف بلا قيثارة

الجيزة: دار فكرة للنشر والتوزيع

تدمك ٨-٤٣-٦٩٤٣-٩٧٧-٩٧٨

القصص العربية

رقم الإيداع: ٢١٢١٦

الطبعة الأولى: ٢٠٢٣

جميع الحقوق محفوظة للناشر

دار فكرة للنشر والتوزيع - عضوية اتحاد الناشرين المصريين

رقم: ٧١٣ - جمهورية مصر العربية

٠٠٢٠١٢٨٢٤١٠٤٥٨ / ٠٠٢٠١١١٤٤٤٣٥٤

fekra.publishing@yahoo.com

فريق العمل

المراجعة اللغوية: أ. أحمد عبد الحليم — غلاف: م. مي حمزة

تنسيق وإخراج: أ. هيثم شعلة — التحرير: أ. عبير جمال الدين

الإشراف العام: أ. أيمن الصباح

إهداءٌ

إلى زوجي رفيق دربي، من جعلني أجولُ باحثةً عن مفهوم الحياة..

وإلى كلِّ باحث عن السَّعادة، لا تظنَّ يومًا أنَّ السَّعادة تكُمن في المال..

بل تكمن سعادتك بفهم الحياة..

أشكرُ..

أبي؛ لحكمته التي لولاها ما تمكنتُ من مواجهة الصِّعاب..

أمي، التي كانت سببًا رئيسًا في خروج كتابتي للنُّور؛ فهي من علَّمتني حب القراءة وعشقها..

والدة زوجي، التي تعلَّمتُ من خبراتها الكثير..

صديقاتي اللاتي دعمن خطواتي في الكتابة..

صديقتي عبير جمال الدين؛ لمساعدتي في ملْلمةِ كلماتي وتدوينِها في هذا الكتاب.

جيهان سرور

(١) اللَّوْحَةُ

صدمَتْها

كلماتُـه وصُراخـه وهـو يُلقـي عليهـا اللـوم بتدخلِّهـا في حياتـه، وملاحقتِـه في علاقاتِـه بأصدقائـه ومُعلميـه، متعجبًـا لمُحاولـة إقحـام نفسِـها في كلِّ مـا يخـصُّ حياتـه وحيـاة أشـقَّائه، دون أن تـترك لـه ولهـم مسـاحتهم الخاصَّـة في التعامُـل مـع الآخريـن، أو في تحديـد اختياراتهـم المُلائمة لشـخصيَّتهم، لينضـمَّ لـه والـده موجهًـا حديثـه لهـا قائـلًا:

– بالفعـل، أنـتِ تتدخلـين في كلِّ الأمـور دون أن يطلـب أحـدٌ منـكِ شـيئًا. أنـتِ لا تعلمـين مـا هـو دوركِ الفعـلي تجـاه أسرتكِ.

حاولَـتْ أن تدافـع عـن نفسـها وهـي متعجبـةٌ مـن اتِّهاماتهـم الموجَّهة إليهـا، وهـي تـردِّدُ على مسـامعهم:

– أنـا أسـتيقظ كلَّ يوم فجـرًا قبل موعد اسـتيقاظكم؛ لإعـداد الطعام المُفضَّـل لـكلٍّ منكـم، وإعـداد الحقائـب المدرسـيَّة، ثـم أنتظـر عربـة المدرسـة، وأظـلُّ أتابـع مـع المُشرفـة حتـى أطمئـنَّ عـلى وصولكـم إلى المدرسـة، ثم أبـدأ مرةً أخـرى مراسـم الاسـتعداد لطلباتك أنـتَ، حتى يحـين موعـدُ ذهابك إلى العمـل.. واليـوم تتَّهمني بعدم معرفتـي بمهامِّي داخـل المنـزل، ودوري تجـاه أسرتي؟!

يُثبِّـت نظراتـه في حدقتَـيْ عينيهـا، ثـم يُلقـي عليهـا سـؤاله بنبرتـه الصَّارمـة:

- مَن أنتِ في الحياة؟

ثم أجابها قبل أن تستوعب كلماته ليقصِل رُوحها قائلًا:

لا أنـتِ بصاحبـة مركـزٍ أو مهنةٍ أو مـالٍ.. فما هو وجهُ أهمِّيتكِ بالنسـبة لنا ؟

ثـم أدار ظهـره لهـا دون أن ينتظـر إجابتهـا، مُوجهًـا حديثـه إلى ولـده، وعـلى وَجْهـه علامـاتُ الضِّيـق والضَّجـر قائلًا:

- لا أمـل في أن تتفهَّـم ما نعانيه جميعًا معها. سـتظلُّ تردِّدُ على مسـامعنا نفـس الكلمات كلما اعترضنـا على تصرُّفاتها.

وقفَـتْ وحيـدةً تنظر إليهـما يتأبَّط أحدُهمـا الآخر، وهـو يهمس في أذن ولدهـا، ويُربِّـت عـلى كتفه، وكأنـه يُصـبِّره على صنيـع والدتـه، تاركيْن المنـزل لهـا، لا تعلم أيـن وجهتهما.

تحـرَّكا تاركـين إيَّاها تقـف وحيـدةً ضائعةً بين سـهام كلماته المُتراشـقة في القلـب، وبـين ضجيـجٍ يجثو فـوق رُوحهـا، يحثُّهـا على التغـاضي عن كلماتـه الحـادَّة من أجـل اسـتقرار الحياة.

ظلَّـت لسـاعاتٍ تبكي، ولا تعلم هـل يرجع بكاؤها لعـدم إرضائهما.. أم لإهانتـه لهـا والتقليـل مـن شـأنها.. أم لعـدم مُدافعـة ابنهـا عنهـا.. أم لتركهـا وحيـدةً بالسـاعات تترك العِنـان لـلآلام وللحزن ينهـش قلبها!

وفي مساء أحد الأيام، أثناء مُتابعة صفحات التواصل الاجتماعي، وقع نظرها عليها في قائمة الأشخاص الذين من المُحتمل معرفتك بهم. كانت هي بلا شكٍّ.. صديقة الطفولة..

أرسلَتْ لها طلب صداقةٍ بعد أن أرسلَتْ لها رسالة تعريف، لأنها كانت تتوارى خلف اسمٍ وهمي خوفًا من انتقاداتهم الدائمة.

جاءها الردُّ سريعًا من صديقتها بقبول الصداقة، ثم أرسلَتْ لها رسالةً فحواها:

«عزيزتي لبنى، لم أتعرَّف عليكِ من خلال الاسم المُستخدم، لكن بمجرَّد إرسالك رسالةً انتابتني سعادةٌ جارفةٌ للقائنا مرةً أخرى، بعد مرور كلِّ تلك الأعوام.. أتمنى أن نلتقي قريبًا فعليًّا.. ليس من خلال شبكات التواصل الاجتماعي الافتراضية».

تغاضَتْ عن الكلمات المسطورة في نهاية الرسالة، واكتفَتْ بمُبادلتها الفرحَ لاستئناف علاقةٍ انقطعت منذ أكثر من سبعة عشر عامًا، منذ ارتباطها بزوجها.

تبادلا أرقام هواتفهما النقَّالة.. وبدأت المُكالمة، ولم تنتهِ إلا بعد سماعها صوت زوجها قادمًا من الخارج..

أصابتها تلك الرجفة المُعتادة كلما عاد إلى المنزل.. تلعثمَتْ قائلةً

وهـي تبحـث عـن كلـماتٍ تنهـي بهـا حديثها:

– سـالي، أعتـذر منـكِ.. هناك أمر جللٌ، وسـوف أعـاود الاتصال بكِ مرةً أخرى.

ظلَّـت تفكـر في هـذا الأمـر الجلل الـذي من المُفـترض أن تقصَّـه عليها في مكالمتهـا القادمـة. تسـاءل وهو يـرى حيرتها:

– ماذا بكِ؟ هل حدث شيءٌ؟

أصابتهـا حـيرةٌ أخـرى في اتخـاذ قـرار أن تقصَّ عليـه ما حـدث معها، خوفًـا مـن ردَّة فعلـه تجاهها.. جذبهـا مـن ذراعها وحـدَّق بها متسـائلًا وهـو يجـزُّ على أسـنانه:

– ماذا حدث؟

أجابتـه مرتبكـةً بعـد أن خلَّصـت ذراعهـا من أصابعـه المغروسـة فيها قائلةً:

– لا شيء. كنـت أتحـدَّث مـع إحـدى صديقـاتي، وأغلقـتُ المكالمـة بشـكلٍ غـير لائـقٍ..

ثم بدأَتْ في قصِّ كلِّ ما حدث بينها وبين صديقتها..

لطمها بسؤاله قائلًا:

– هل ستلتقين بها أم مجرَّد مكالماتٍ مُتبادلة؟

كانت تعلم جيدًا ضِيقه من العَلاقات والصداقات، فتمتمت قائلةً:

– من المؤكَّد أنني سأكتفي بالمكالمة.

تركها منسحبًا دون أن يُعلق على ردِّها..

بعد عدَّة مكالماتٍ، أصبح إلحاح صديقتها في اللقاء أمرًا لا يليق أن تعتذر عنه. بادلتها الطلب بطلبٍ آخر قائلةً:

– سالي، بما أنكِ أصبح لديكِ باعٌ وصيتٌ عالٍ في مجال الديكور، هل يُمكنكِ الحضور إلى منزلي لتقييم ما قمتُ به من ديكوراتٍ وإضافةِ ملاحظاتك عليه؟

لا يمكنكِ التقييم من خلال الصور، وأيضًا ستكون فرصةً عظيمةً لتناول قطعةٍ من كعكة جوز الهند المفضلة لكِ.

ضحكت سالي قائلةً:

– ما زِلْت تذكرين نِقاط ضعفي.. سنوات وأنا أحاول إعدادها مثل والدتكِ، لكني لم أوفَّق. هل استطعتِ إتقانها مثل والدتكِ؟

– عليكِ أنتِ أن تحكمي.

وفي وقت احتسائه قهوةَ المساء، جلسَتْ بجانبه تبحث عن كلماتٍ

تبـدأ بهـا إخبـاره عن رغبـة صديقتهـا في زيارتهـا للمنـزل.. كانت تهاب ردَّة فِعلـه، لكنـه عـلى غـير توقُّعهـا رحَّـب بالأمـر، عـلى أن تختـار وقت الصبـاح أثنـاء تواجـده بالعمل..

وفي غضون أيامٍ في الصباح، كان موعد لقائهما المُنتظر في منزل لبنى.

وقفَـتْ لبنـى أمـام المـرآة، تحـاول أن تخفـي بدانتهـا الملحوظـة خلـف ملابسـها الفضفاضـة..

تضـع القليـل مـن مُسـتحضرات التجميـل عـلى وجههـا، محاوِلـةً أن تـداري علامـات السـنين البادية جليـةً عليهـا..

تسـدل شـعرها عـلى ظهرهـا، ثـم تُعـاود عقصه لأعـلى بعـد أن تتعرَّق منـه.. ثـم تقـرِّر ارتـداء حجابهـا كـي يلائـم مظهرهـا الحـالي وبدانتهـا المُفرطة..

لم تنتبـه لمـرور الوقـت، حتى سـمعَتْ صوت جـرس المنـزل في الخارج معلنًا عـن وصـول صديقتها..

تشـعر بدقَّـات قلبها تتسـارع، كما لو كانـت في مقابلةٍ رسـميةٍ. أدارت مقبض الباب لاسـتقبالها..

ابتسمَتْ سالي لها، واقتربت منها تُعانقها وهي تردِّد:

- كما كنتِ يا لبنى، لم يتغير بكِ شيءٌ.

حاولَتْ لبنى أن تُثنيها عن رأيها قائلةً:

- بل تغيرتُ كثيرًا وأصبحت بدينةً جدًّا. أصبحتُ أُشبه الجدَّات.

اقتربَتْ سالي منها مبتسمةً وتمتمت قائلةً:

- ما زال صفاء قلبكِ ينعكس جليًّا على ملامح وجهكِ الملائكية..

ثم ألقَتْ بنظرها إلى نهاية غرفة الاستقبال، لترى لوحةً ضخمةً تشدُّ البصر إليها، فتقدمَتْ منها وهي تتكهن قائلةً:

- تلك اللوحة من أعمالكِ يا لبنى، صحيح؟

- بل هي عملي الوحيد.

تقتربُ منها أكثر وهي تتساءل:

- ليست لوحةً عاديةً. تبدو وكأنها مرسومةٌ على الحائط.

بدأت لبنى تسترسل في وصف الخامات المُستخدمة، كي تستطيع أن تُخرج تلك اللوحة على هذا الشكل، ثم أنهت حديثها قائلةً:

- بدأت فكرة هذه اللوحة أثناء مشروع التخرُّج، لكني تراجعتُ عن تقديمها آنذاك لشعوري بعدم جودتها، واستكملتها بعد الزواج بأعوامٍ..

جلسَتْ سالي أمام اللوحة وهي تتعجب من حديث صديقتها، بعد أن انسحبَتْ لدقائق لإحضار الشاي والكيك.

ثم واجهتها بالسؤال قائلةً:

- كم من الوقت تستغرقينه لإعداد لوحةٍ أخرى مطابقةٍ لتلك اللوحة، ولكن بمقياس مُضاعف؟

- من شهرٍ إلى شهرٍ ونصف تقريبًا. لكن لماذا تسألين؟

- ممتاز. أهمُّ شيءٍ أن تحرصي على استخدام نفس الخامات.

أومأت لبنى برأسها موافقةً على طلب صديقتها، وقالت:

- في خلال أيامٍ سأطلب الخامات وأبدأ فيها.. لكن أريد أن أفهم سبب طلبك لها..

أخذت سالي نفسًا عميقًا وبدأت في شرح الأمر للبنى قائلةً:

- منذ ثلاثة أيام، بدأ الإعلان عن مسابقةٍ للوحاتٍ حصريةٍ لأحد البنوك العملاقة في الدولة، ولكن لوحاتٌ بخاماتٍ وأشكالٍ غير تقليديةٍ، وكما تعلمين، فإن الفوز بهذه المسابقة يعني حفر اسم الرسَّام على العمل في كلِّ فروع البنك.. ومنذ لحظة رؤية اللوحة، شعرت أنها اللوحة الملائمة، فقررتُ أن أقدِّمها باسمكِ من خلال مكتبي..

وفي حالـة الفوز، سـيتولَّى المكتب توفير كلِّ الخامات وكلِّ المسـاعدات للانتهـاء من العـدد المطلوب.

أصاب لبنى شعورٌ بالخوف والرفض، بعد أن استمعت لحديث صديقتها مليًّا، وهي تؤكد عليها قائلةً:

– رأيـكِ يرجـع فقـط لحبـكِ لي، لكنهـا لوحـةٌ لا تسـتحق كلَّ هـذا الثنـاء، حتـى زوجي يـوم أن أعددتُهـا أصابته خيبـة أملٍ منهـا، ثم بدأت تتنـدَّر بكلماتـه وقتهـا قائلةً:

– كان يحمـد الله أنَّنـي لم أعمـل بمهنتـي بعـد التخـرج؛ خوفًـا من دفع تكاليـف التعويضـات الناتجـة عن عملي السـيئ.

كان وقعُ كلماتها كالصَّدمة على نفس سالي، فقالت لها بهدوءٍ:

– لبنـى، زوجـكِ يعمـل في مجـال الحسـابات، ومـن المُحتمـل أنـه لا يسـتوعب جمـال تلـك اللوحـة، لكـن مـاذا سـتخسرين إذا قـررتِ أن تخـوضي تلـك التجربـة؟ أعتقد أنـكِ متفرغـةٌ، والعمـل لا يتطلب منكِ الخـروج مـن المنـزل. دعينـا نخـوض معًـا هـذا التحدي..

وفي كلِّ الأحـوال، أنـا في حاجـةٍ إلى هـذه اللوحـة في عمـلي، هـذا إن كنـتِ تثقـين في رأيـي.

وافقت لبنى على طلب صديقتها على مضض..

وبعد انتهاء الزيارة، ظلَّت الفكرة تدور في رأسها، وحُلم الفوز يداعبها، بعدما تذكَّرت كلمات زوجها الجارحة عن كونها لا تملك كُنية في الحياة.. لا تملك مهنةً أو منصبًا أو مالًا..

كان وقعُ كلماته القاسيةِ عليها يزيد من إصرارها على النجاح.

أيامٌ قليلة، وبدأَتْ لبنى في شراء الخامات المطلوبة، وبدأَتْ في إعداد أولى مراحل العمل على اللوحة..

قررَتْ ألَّا تُخبر زوجها بحديث صديقتها خوفًا من الفشل، لكنَّها فقط قررت أن تخبره بأنَّها تنوي أن تهدي صديقتها لوحةً من رسمها، بعد أن استشعرَتْ إعجابها بلوحتها، لكنَّه أجابها ساخرًا:

- الأفضل أن تبتاعي شيئًا ذا قيمة، بدلًا من تلك اللوحة الخرقاء.. كانت تحاول أن تجاملكِ فلا تأخذي الأمر جديًّا.

صمتت لبنى لفترةٍ طويلةٍ. لم تجد من الأحرف والكلمات ما يعبِّر عن وقعِ كلماته عليها..

انسحبَتْ من جلستها وجلست منفردةً تعمل على لوحتها..

أحضرت هاتفها وسمَّاعتها اللاسلكية، وبدأت تستمع إلى موسيقى هادئةٍ كي تغوص مع فُرشاتها داخل اللوحة.

لم تشعر بمرور الوقت إلَّا بعد أن انضمَّت إليها صغيرتها قائلةً:

- ألم تنتهِ بعدُ يا أمي؟ أنا أتضوَّر جوعًا، ولا أريد أنا وسليم أن نتناول طعامنا بمفردنا.

لم تنتبه لبنى أنَّها لم تبرح مكانها منذ أكثر من ست ساعاتٍ، ولم تنتبه لألاعيب طفلتها المدللة، فهي لم تعد طعامًا للعشاء كي يتناولاه بمفردهما، لكنها مجرد حيلةٍ لإعداده.

التفتت إليها تضمُّها إلى صدرها، وهي تستمدُّ من عناقها الحنان قائلةً:

- وأنا أيضًا أشعر بالجوع الشديد. ما رأيكِ في طلب طعامٍ جاهزٍ من الخارج؟

صاحت رقيةُ بصوتٍ عالٍ وهي تنادي على سليم قائلةً:

- ستطلب أمي طعامًا جاهزًا يا سليم، هيا.. هيا!

ابتسمت لبنى من براءة صغيرتها وسعادتها من مجرد إحضار وجبة طعامٍ من الخارج..

انضمَّت لهما في غرفة المعيشة، وبدأ سليم في أخذ الآراء لطلب الطعام المفضَّل لكلٍّ منهم، بعد أن انضمَّ والدهم إليهم..

ذهبت رقية في سُباتٍ عميقٍ في حضن والدتها، أثناء مشاهدة فيلمٍ في التلفزيون.

نظمت لبنى وقتها بين عملها على اللوحة، وبين القيام بمتطلَّبات المنزل والأسرة.. خصَّصت الفترة الصباحية للعمل على اللوحة، ثم فترة الظهيرة لإعداد الطعام وغيره من متطلَّبات المنزل.. وفي الفترة المسائية كانت تجلس معهم بالجسد فقط، دون أن تسترسل في أحاديث، ودون التدخُّل في إبداء رأيها فيما يخصُّ أيًّا منهم.

أحيانًا كثيرةً كان سليم يتعجب من والدته، ويبدأ في مُمازحتها قائلًا:

- يبدو أن تلك اللوحة لها مكانةٌ خاصةٌ عندكِ، حتى إنكِ لم توجهي لي منذ فترةٍ سؤالك المعتاد عن أداء واجباتي المدرسية، ولم تتصلي بأيٍّ من المعلمين لمعرفة تطوُّر أدائي عن الشهر السابق.

تصمت لبنى قليلًا.. تستحضر إجابةً تبدو أنها منطقيةٌ لتقول له:

ليس للوحة علاقةٌ بسؤالي عنكَ ومتابعتي لمستواك التعليمي، لكنَّها كانت مرحلة تأسيس لك، وبما أنك قد تخطَّيتها بنجاحٍ، فلا خوف عليك في القادم. أنا كلِّي ثقةٌ في أدائك.. وواثقةٌ كلَّ الثقة أنك لن تتردَّد في اللجوء لي عند الحاجة.

رغـم أن إجابتهـا كانـت تبـدو مثاليـةً لسـليم، فإنـه شـعر بقليـلٍ مـن الغـيرة لانشـغال والدتـه عنـه..

أحيانًا كثيرةً تتأرجح مشاعرنا بين الرَّفض والقبول في آنٍ واحدٍ..

كان زوجهـا يتابع حديثها مع سـليم، وينتابه شـعورٌ غريـبٌ. هل كان مـا ينقصـه طَوال السـبعة عـشر عامًا هو انشـغال زوجته قليـلًا عنهم؟.. هـل وجودهـا الدَّائـم أفقـده لـذة الاشـتياق؟.. ومـاذا بعـد انتهائها من تلـك اللوحة؟

تجلـس صامتـةً بجانبـه.. لا تُبـادره بالسُّـؤال والتحقيق عـن يومه. أين ثرثرتُهـا الدَّائمـة عن عمـلٍ دراميٍّ شـاهدته، ومحاولتُهـا أن تقصَّه عليه؟! كلُّ هـذا جعلـه يتنفـس قليـلًا.. كان لأوَّل مرةٍ يشـعر بالارتباك في تحديد مشاعره.

اسـتغرقت اللوحـة خمسـة أسـابيع. الحالـة النفسـيَّة التـي بثَّتهـا فيهـا صديقتهـا، جعلتهـا تغـيِّر في بعـض تفاصيـل اللوحـة، بـما يتناسـب مع مشـاعرها الحاليَّـة..

وبعد انتهائها منها، طلبَتْ من صديقتها الحضور لرؤية اللوحة.

وفي الموعـد المحـدَّد بينهـما، ذهبت سـالي إلى منزل لبنى. كانـت تثق أنها سـتجد لوحـةً تختلف عـن الأولى، وأنها سـتجدها على مسـتوًى أعلى من

اللوحـة الأولى، لكنَّهـا لم تتخيل أنهـا تفوَّقت على نفسـها إلى هذا الحدِّ..

بمجـرَّد أن رفعـت لبنـى السِّـتار عـن اللوحـة، شـهقَتْ سـالي شـهقةً عاليـةً وهي تـردِّد:

ما شاء الله.. ما شاء الله!

روعة.. حقًّا.. إنكِ تفوقتِ على الجميع..

كلُّ هذه البراعة أخفيتها كلَّ تلك الفترة يا لبنى؟!

تساقطَتْ بعض قطرات الدَّمع من عيونها وهي تتحدث هامسةً:

لولاكِ يا سالي ما كنتُ اكتشفت نفسي.

تضمُّها صديقتها إليها وهي تربِّت على ظهرها بحنانٍ قائلةً:

لـكلِّ فـترةٍ ظروفها. من المؤكَّـد أن الفـترة الأولى من الـزواج وإنجاب الأطفـال وتربيتهـم تحتاج كلَّ هـذا التفرُّغ..

والآن، حـان وقـت أن تسـتعيدي نفسـكِ، قـد أبليـتِ بـلاءً حسـنًا في تأسـيس الأكثـر صعوبةً.. والآن، فترة الاسـتمتاع وحصد مـا تمَّ زراعته على مـدار أعوامٍ سـابقةٍ..

وفي خلال أيامٍ تمَّ تقديم العمل في المسابقة..

وفي أثناء تلك الفترة، كانت لبنى تتابع كلَّ ما هو جديدٌ في عالم الفنِّ، محاولةً أنْ تتناسى أمر المُسابقة، وتبدأ في العمل من خلال صديقتِها، في توفير بعض اللوحاتِ والأعمال المطلوبة لديكور بعضِ المنازل.

وجاء وقتُ إعلان نتيجة المُسابقة..

كانت لبنى تعدُّ طاولة الطَّعام وذهنها كلُّه مشتت في انتظار نتيجة المُسابقة، ويوجد صراعٌ داخلها.. بين تحقيق أملها في الفوز، وبين كيفية إخبار أُسرتها عن أمر المُسابقة في حالةِ فوزها..

حتى رنَّ هاتفها النقَّال لحظةَ انضمام زوجها إليها في المطبخ..

أجابت عليه سريعًا، بعد أن رأَتْ رقم صديقتها. كانت أوَّل كلمةٍ استقبلتها:

– مبروك يا لبنى. كنتُ على يقينٍ وثقةٍ تامةٍ من فوز لوحتكِ منذ اللحظة الأولى.

لحظاتٌ فارقةٌ مرَّت عليها.. تقفزُ من مكانها فرحةً..

يتعجَّب زوجها من حالتها، لينضمَّ له سليم ورقية، على صوت صيحات والدتهم الفرحة، وهم يتبادلون النَّظرات فيما بينهم.. لتعلن لهم بعد إنهاء المُكالمة عن فوز لوحتها بالمركز الأوَّل في مُسابقة أحد

البنـوك الكُـبرى، لتكـون لوحتها هي اللوحة الرئيسـيَّة في بهـو كلِّ فروع هـذا البنك..

يضمُّها زوجها فرحًا لفوزها، ومهنئًا لها..

لكنَّها تفاجأت من انفعال سليم قائلًا:

- كنـت أشـعر أنَّ وراء تلـك اللوحـة سرًّا آخـر غـير أنَّهـا مجـرد هديةٍ لصديقتـك.. كنـتِ تخدعيننـا في أمـر اللوحـة، وأنتِ تخطِّطـين للدخول في المُسـابقة؟!

فينهرُه والده قائلًا:

- تطالبنـا أنْ نتيـح لـك حرِّية الـرأي، وتعترض على تدخُّلهـا في كلِّ ما يخصُّـك، واليـومَ أراك تقف تُحاسـب والدتك في أمرٍ يخصُّهـا بمفردها!.. لم أجـد فيـما قامت به أيَّ خطأ.. هـي لم تخالـف أيَّ شرعٍ أو تقاليد.

يخفض سليم نبرته قليلًا وهو يتحدَّث قائلًا:

- لماذا لم تُشاركنا الأمر؟

تقترب والدته منه قائلةً:

- سأصارحك دون خجلٍ.. كنتُ أخشى الفشل.

رأيـتُ أنَّنـي قـد أخطـأت في تدخُّـلي في كلِّ شـئونكم عـلى مـدار فـترةٍ

طويلةٍ، ولم أنتبه إلى أن على كل أمٍّ أن تنسحب تدريجيًّا من حياة أبنائها بعد فترةٍ معينةٍ.. كنت أنتَ وأختك وأبوك محور حياتي الوحيد، وبعد أن شعرتُ بضيقكم مني قررتُ البحث لي عن حياةٍ أخرى أجد نفسي فيها بالقُرب منكم.

يعيد زوجها كلماتها مرةً أخرى قائلًا:

حياة أخرى يا لبنى! بل تقصدين البحث عن ذاتكِ برُفقتنا وبوجودنا.. لا ننكرُ ضيقنا في بعض الأوقات.. ليس لعيبٍ فيكِ، ولكنْ يحتاج كلٌّ منا مساحةً ولو قليلةً كي يتنفس فيها قليلًا، يستعيد شتاتَ نفسه أحيانًا، لكنْ إذا زادت المسافة فسينقلبُ الأمر إلى جفاءٍ..

ثم حاول تغيير الحديث قليلًا قائلًا:

- دعينا أولًا نعلم اسم البنك، ومتى سيتمُّ تسليم الجائزة؟

أخبرَتْه بكل التفاصيل.. عن الجائزة، وعن الحفل، وعن الأعمال المطلوبة منها الفترة القادمة..

ألقى نظرةً إلى طاولة الطعام ليجد أنها قد أعدَّت الطعام، فالتفتَ إليها قائلًا:

- هيَّا ننهي طعامنا سريعًا، كي نذهب معًا لشراء ملابس جديدةٍ لكِ تناسب الحدث.

وفي صباح يوم الحفل، بعد أن نظرَتْ لبنى إلى السَّاعة ووجدتها قد تخطَّت الثامنة والنصف صباحًا، نظرت إليه متسائلةً:

- لقد تأخَّرتَ عن موعد نزولك للعمل!

ابتسم لها قائلًا:

- لن أذهب، فقد اعتذرتُ عنه اليوم لمُرافقتكِ للحفل أنا والأولاد.

وقبل موعد الحفل بساعاتٍ، انفرد بسليم قائلًا:

- ما زلتُ أشعر بغضبك من الأمر، لكنْ كما اعتدتَ مني أن أصارحك بكلِّ شيءٍ.. فإنَّ ما قامت به والدتك كان ينقصني قبل أن ينقصها.. كادَتْ حياتنا تتدمَّر في الفترة الأخيرة. كنت أشعر بلومها الدَّائم لي بسببِ عدم الاهتمام بها، وعدم الاستماع إليها، وعدم أخْذ رأيها في كلِّ شيءٍ، حتى في ربطة العُنق قبل نزولي للعمل صباحًا.. وأحيانًا كثيرة، كنتُ ألطمها بكلماتٍ حادةٍ.. كلما تذكَّرتُها ألومُ نفسي عليها..

لكنَّها طبيعةُ البشر..

تساءل سليم:

- هل كانت جدَّتي تعمل؟

استعاد والده بعض الذِّكريات قائلًا:

- كانت تعمل ولا تعمل.. كانت مسئوليات الحياة فيما مضى تختلف عن هذا الزَّمان. أمي كانت تَحيكُ لنا ملابسنا، وتعدُّ الملابس الشتوية المصنوعة من الصوف. كانت هي وباقي سيدات البِناية يتباهين بأعمالهنَّ اليدوية، وإتقانهنَّ لها.. ممَّا كان يشغلها طَوال الوقت.

أومأ سليم برأسه محاولًا أنْ يتقبل كلام والده، وبدأ يستعدُّ لاختيار ملابس تُلائم الحفل.

وفي غرفة نومهم.. كانت تقف أمام المرآة تتزيَّن، وهو يقف بجانبها ينظر إليها ويتمِّم على مظهرها، وبعد أن انتهت، رأته يقف حائرًا في اختيار ملابسه، ثم لجأ إليها متسائلًا:

- أيُّ ربطة عنقٍ ملائمةٌ أكثر؟

أشارت له بالأصلح وهي تضحكُ، ولسان حالها يحدِّثها قائلًا:

«تستحقُّ الحياة أن نبحث عن سعادتنا..

ولا يُمكننا أنْ نحصل على سعادتنا من مَديح الآخرين..

السَّعادة الحقيقية سنجدُها في عيون الآخرين بعد تحقيق النجاح».

كانت ممتنَّةً لصنيع صديقتها لها، ومساندتها للوقوف على أوَّل

الطريـق.

لـن تنـدم يومًـا عـلى حياتهـا الماضيـة؛ بـل سـتظلُّ مُمتنـةً لما مـضى بها.. فلـكلِّ مرحلـةٍ شـكلٌ آخـر للحياة.

لم تشـعر بالزَّهـو يومًـا كما شـعرت به في تلـك اللحظة.. لحظة تسـلُّمها شـهادة فوزهـا، ورؤيتهـا لـه يتخـلَّى عـن رصانتـه المعهـودة ويقـف بين الحاضريـن يصفِّـق فرحًـا بهـا، وعيونه تتـلألأ مـن البهجة.

(٢) الطَّرِيقُ

في أحد أيام الخريف الرَّائعة، وأنا جالسةٌ على الأريكة الخشبية الكبيرة.. تُظَلِّلُني غصون الشجرة العتيقة المتشابكةُ وكأنَّها أيادٍ مُمسكةٌ ببعضها البعض، وتُداعبني بعض النَّسمات الخريفية العليلة.. أتأملُ أوراق الشجرة الذابلة، وهي تتساقطُ تحت أقدامنا بعد أنْ جفَّ نَبعُها، وتغيَّر شكلها..

فجأةً رأيتُ رجلًا يركضُ على الطَّريق، يرتدي حُلةً رياضيةً كاملةً، ولكنَّه يبدو كمن خرج مندفعًا من منزله، فلم ينتبه لعدم ارتداء حذائه.

تعجَّبتُ من ركضه بتلك الهيئة، وتساءلتُ بيني وبين نفسي: تُرَى ماذا حَلَّ به كي يركض مهرولًا هكذا!!

أَدَرْتُ نظري مرةً أخرى، فوجدتُ رجلًا آخرَ قادمًا مرتديًا نفس الحُلَّة الرياضية، ولكن ممَّا زاد دهشتي وتعجُّبي، أنَّه أيضًا بلا حذاءٍ!

تساءلتُ في حيرةٍ: هل هو سباقٌ، ومن شروطه أن يكون المتسابق حافيَ القدمين؟ أم أنَّ هناك شيئًا آخر لا أفهمه؟!

تملَّكني الفضولُ الجارف، فترَكتُ جِلستي الهادئةَ، وركضتُ خلفهما في حماسٍ شديدٍ، وفي أثناء ركضي حاولتُ أن أستبصر وجهتهما، فشاهدتُ على مسافةٍ بعيدةٍ طريقين، أحدهما عكسُ الآخر، وعلى

كلٍّ منهما لافتةٌ، ولكنِّي لم أستطع تمييز ما دُوِّن عليهما من هذه المسافة البعيدة.

ازدادت سرعةُ الرَّجل الأول وكأنَّه يسابق الزَّمن كي يَمُرَّ من الطَّريق الأول، وازداد لُهاثُ الآخر كي يلحق به. ولكنْ بعد أن اختفى الرَّجل الأول عن ناظريَّ، سمعتُ صرخةً مُدويةً قد قَدِمَ صداها من بعيدٍ (من الطَّريق الذي اتخذه ذلك الرَّجل)!

في نفس اللحظة وجدتُ الرَّجل الآخر قد مال بكلِّ جسده متوجِّهًا إلى الطَّريق المُعاكس وهو يرفعُ يديه إلى الأعلى مُلوِّحًا بعلامة النصر.

تمهَّلتُ في ركضي حتى توقفتُ في مكاني؛ لأُلملمَ أنفاسي المُتلاحقة، وأرتِّب أفكاري الحائرة. ماذا أنا فاعلةٌ؟! هل أتقدَّم إلى الطَّريق الأول لإنقاذ صاحب الصَّرخة المُدوية؟ ولكنِّي تذكرتُ تلك اللافتة، فاقتربتُ كي أتمكَّن من قراءتها، فوجدتُ مكتوبًا عليها:

«احذر! طريقُ الحياة ملئٌ بالخَصَواتِ، فإذا تَرَيَّثْتَ الخُطى فسوف تصلُ ناجيًا، وإذا اندفعْتَ فسوف تصلُ، ولكن للنَّدبات حاملًا».

فتقدمتُ قليلًا أبحث عن الرَّجل الأول، فشاهدتُه يحاولُ النُّهوض وهو يَئنُّ مُتألمًا من جروحٍ قد أصابت جبهته.

فتذكَّرتُ الآخر وهو يرفعُ يديه بعلامة النَّصر مبتهجًا.

مسرعـةً تركـتُ مـكاني وركضـتُ لاهثـةً إلى لافتـة الطَّريـق المعاكس، وأنـا خائفـةٌ عـلى مصـير ذلـك الرَّجـل، فهالنـي مـا قـرأتُ عـلى تلـك اللافتة:

«إذا سـبقك أحدُهـم في طريـقٍ مـا، وسـمعتَ صُراخـه، فقـفْ وتمهَّل الخُطـى كي تعلم مـاذا أصابه.. هل أخطـأ الطَّريق، أم أخطأ في المَسـير؟!

ولا تَدْفَعَنَّـكَ صرختُـه إلى الطريـقِ المُعاكِـسِ؛ فهـو لم يَتَمهَّلْ كـي يَعلَمَ قانـونَ الطريـقِ المُـدَوَّنَ عـلى اللافتةِ، فَتَعثَّـرَ في حصـواتِ الطريقِ.

الطريـقُ المُعاكِـسُ، هـو طريـقُ مَـن فَقَـدَ الصـوابَ في الحُكـمِ عـلى المواقـفِ!

الطريقُ المُعاكِسُ هو طريقُ الهَلاك.

(٣) غُصْنٌ من الشَّوكِ

كانَ كلُّ ما يَشغلُني في تلكَ اللحظة، هو أن أَعْبُرَ هذا النَّفق المُظلم الذي ظللتُ حبيسةً فيه منذ أعوامٍ مضتْ..

بدأتُ أتحسَّسُ خطواتي نحو هذا الدَّرَج البعيد، وعندما اقتربتُ منه وجدتُها تقفُ عند بداياته، تنتظرني، وبصوتها الحَنون العذْب، همَسَتْ لي مؤكِّدةً على ضرورة الوصول إلى أعلى الدَّرج؛ لرؤية ضوء الشَّمس السَّاطع.

كانت تصفُ لي ضوءه، وتتغنَّى بمزاياه، وتحثُّني على المُضيِّ للهدف.

نظرتُ إليها كي أستمدَّ من ثقتها طاقة الأمل في الوصول إلى هدفي، فوجدتُها تحملُ بين يديها مصباحًا صغيرًا، وتُقدِّمه لي كي ينير الطَّريق أمامي أثناء صعودي الدَّرج، وبين أناملها الرَّقيقة حملتْ غُصنًا من الورود الطَّبيعية ذات الألوان النَّاعمة.

فتمسَّكتُ بيديها قائلةً:

سنصعدُ معًا أعلى الدَّرج..

تَململَتْ قليلًا وقالت:

إنَّني أخشى الضَّوء، فقط سأصطَحبكِ حتى تطأ قدماكِ أوَّل بصيصٍ للنور.

ظللتُ أتمسَّك بيديها، وأنا على أمل أن يسريَ وَهَجُ مشاعري، ودقَّات قلبي المتلاحقة؛ ليخترق عُروقها، فتكمل معي خطواتي، ونصعد معًا إلى نهاية الدَّرج.

كانت تنظرُ لي كنظرات أُمٍّ إلى وليدها، فَتملَّكتْني الطُّمأنينةُ بوجودها، وبدأتْ تحيطُ رقبتي بالغُصن الذي كانت تحملُه بين أناملها كي تُزيِّنه، فشعرْتُ بوخزةٍ في عنقي آلَمْتني، ولكنَّني تغاضَيتُ عن هذا الألم، وأكملتُ الصُّعود برفقتها.

ومع كلِّ درجةٍ من درجات السُّلم، كنتُ أشعرُ بإحكام تطويق الغُصن حول رقبتي، فأوقفْتُها وأنا مُتألِّمةٌ، وبعضُ قَطراتٍ من الدَّم تتساقطُ على صدري قائلةً:

- إنَّ هذا الطَّوق يُدميني ويُؤلمني، فما به؟

فقالت بإصرارٍ:

- إنَّه مجرد غُصنٍ من الورود، ولكنَّه يحملُ قليلًا من الشَّوك.

فقلت لها:

- إنه يؤلمُني، رفقًا بي؛ فأنا أعتزُّ برُفقتِكِ.. لكنَّه يُنغِّصُها عليَّ.. ثم أكملتُ الصُّعود قليلًا، وأنا ما زلتُ أعاني من شِدة ألم هذا الوَخْزِ في رقبتي، والذي تخلَّل ألمُه قلبي.

وعلى حين غِرَّةٍ ذَبحَتْني من نحري.

فسألتُها وأنا أصارعُ الموت والدَّمُ يتدفَّقُ من جِيدِي، ودقَّاتُ القلب تتلاشى من صدري:

لِمَ فعلْتِ بِي هذا؟

فأجابَتْني دون أن يَرِفَّ لها طَرْفٌ قائلةً:

قد حذَّرتكِ من صعودي معكِ؛ فأنا لستُ سوى كائنٍ ضعيفٍ، لا أملكُ من التَّمييز إلَّا القليل، ولقد ساندتُكِ وتكبدْتُ الكثير.

ثم فارَقتْني تاركةً إيَّاي مطوَّقةً بغُصن الشَّوك المغْروسِ في جِيدِي، تُزيِّنُه الورود؛ كي تُخفيَ سَوْءاتِه، والدَّمُ يتساقط على صدري.

ورحلَتْ إلى أسفل الدَّرَج مرةً أخرى، غير عابئةٍ، أو نادمةٍ على ما فعلَتْ، تتخفَّى في ظلام النَّفق العَفِنِ، تدَّعي أنها حذَّرتني، وتحمَّلتْ من أجلي ما لا يُطيقه أحدٌ!

(٤) اللِّقاءُ الثَّاني

في أوَّل أيـام الجامعـة، داخلَ سـنترال الجامعـة، وبالتحديد في مبنى كُليـة الهندسـة، تركَـتْ رضـوى الكُتـب عـلى أحـد الأرفُـفِ، واتَّـكَأَتْ بجانبـه في انتظار أن تُنهـي صديقتُها المغتربـةُ مكالمتَها مـع أسرتِها.

فتقدَّم لها شابٌّ يبدو أنَّه أكبرُ منها في العُمر، وقال وهو مبتسمٌ:

ممكن كتابي من فضلكِ يا آنسة؟

فنظـرَتْ لـه رضـوى وعيونُهـا تحمـل سِـهام الغضـب.. مَـن هـذا المُتطفِّـل؟! ثـم أدارتْ رأسَـها متجاهلـةً إيَّاه، فالتـفَّ حولَها وأعـادَ طلبَه مـرةً أخرى:

كتابي إذا سمحتِ!

فأجابتْهُ مُنزعجةً:

عيـب عليـك، مش مكسـوف بتعاكـس في الجامعة! دا كتـابي ويا ريت تمشي مـن هنا مـن فضلك.

اتَّسَعت ابتسامتُه وهو يُكمل:

صَدِّقيني مش بعاكس، وده كتابي.

أَنْهَـت الصديقـةُ مكالمتَها، وحضرتْ عـلى صوت خِلافهما، فتسـاءلَتْ

عـن السـبب، وبعـد أن أخبرتهـا رضـوى بـما صنـع الشـابُّ، ومحاولتِـه التَّطفُّـل والمعاكسـة مُدعيًـا أن الكتـاب خاصتُـه، أجابتْهـا الصديقـة بمُنتهـى الهـدوء والأريحيَّـة:

بس دا فعلًا مش كتابي يا رضوى!

نظـرتْ رضـوى لها مصدومـةً بعـد أن علمتْ أنَّهـا كانت مخطئـةً، وأنَّه كتابُـه بالفعل.

اعتـذرَتْ لـه وهـي آسـفةٌ عـلى تسرُّعهـا، وشـعرتْ بخجـلٍ شـديدٍ وسَـمعتْه يقـول دونَ النظـر لـه:

ولا يهمك، عادي.. أنا اسمي (مجزي)، طالب هنا في كلية الهندسة.

كرَّرتِ الاسم مُستنكرةً (مجزي)!! ثم تركَتْه ورحلَتْ.

مرَّت الأسابيع بعد هذا الموقف.

وفي أحـد الأيـام، التقـتْ رضوى مـع صديقةٍ أخـرى بهذا الشـابِّ مرةً ثانيـة، وعرَّفَتْها بـه قائلةً:

ده زميـل معانـا هنـا في الجامعة، تعرَّفْـتُ عليه في موقـف غريب حصل بينا، اسـمه (مجزي).

نظـرَتْ لـه الصديقـةُ وهـي مسـتغربةٌ الاسـم، ومندهشـةٌ مـن العِقـد

الذهبـي المُلتـفِّ حـول عُنقـه، فقالـتْ لـه دونَ تفكـيرٍ:

إنت عارف إن لبس الذهب حرام عليك!

فابتسم مجزي قائلًا:

لأ، الحقيقة معرفش.

فأكملَتْ مرةً أخرى:

إزَّاي! إنت كده من المتشبهين!

فاندفعَتْ رضوى كعادتها مُؤكِّدةً كلام صديقتها قائلةً:

فعلًا يا مجزي، حرام جدًّا؛ كده انت من المتشبهين بالنساء.

فاتَّسعت ابتسامتُه قائلًا بهدوءٍ:

أنا آسف..

فاستكملَتِ الصديقة:

ومش هتتقبل منك صلاة وانت لابس دهب..

وأثناء الحوار، رُفع أذانُ الظُّهر فقالت له: هتعمل إيه دلوقت؟

فأجابها مجزي قائلًا:

بالرَّاحـة شـوية يـا آنسـة، إنـت معرَّفتنيـش بنفسـك حتى، اسـمك إيه علشـان اعـرف أنا بكلـم مـين، ونتناقش!

فأجابته:

اسمي رانيا فتحي.

قال مجزي ضاحكًا:

تشرَّفْـتُ بـكِ يا آنسـة رانيـا.. أنا بقى اسـمي مجـدي ميخائيـل، طالب في الفرقـة الثالثة بكلية الهندسـة..

فضحكَتْ رضوى مُقهقِهةً بصوتٍ عالٍ قائلةً:

يـا راجـل، وسـايبني أقـول لـك مجـزي مجـزي! ثـم أردفـت: وأنـا مسـتغربة اسـمك قـوي! أيـوه كده صحيـح، الاسـم معقـول (مجدي).

بس هو انت ألدغ في الدال؟!

فضحك مجدي بعد أن عَلِمَ بمدى ربكتِها قائلًا:

لأ، مسيحي يا أم العُرِّيف.. مش ألدغ.

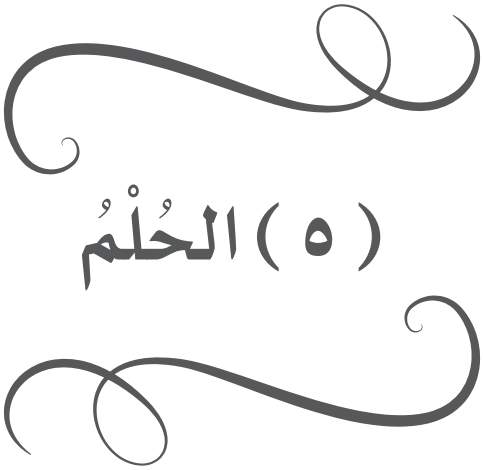

(٥) الحُلْمُ

أعدَّتْ (هدى) الشاي وأحضرَتْه لعصام في الشُّرفة، وتركَتْه لتستمتع ببعض الخُصوصية في مُكالمتها مع صديقتها الوحيدة (ندى).

جلسَتْ على مقعدها الهزَّاز داخلَ غُرفتها، وشرعَتْ تتحدثُ معها بودٍّ فقالت لها ندى:

إزيِّك، أخبارك إيه النهارده؟

هدى متأففةً:

زي كل يوم يا بنتي. طلبات مش بتخلص. مش عارفة الحظر ده هيخلص إمتى؟!

ندى ضاحكةً:

نعمل إيه؟! الرجالة كلها مش مريَّحة نفسها طلبات!

هدى بحماسٍ:

إنتِ عارفة أنا بحلم بإيه؟

ندا: إيه؟

هدى: بحلم بقرار يطلع من (مُنظمة الصِّحة العالمية) يؤكد عدم وقوع أي ضرر على الرجال من هذا الوباء اللعين، وأنه يُمكنه الضرر

بالنسـاء فقـط.. (يعنـي الرجالة تنزل الشـغل بقـى عادي).

والستات تاخد أجازة مدفوعة الأجر.

ندى: يا سلام! يا ريت.

انتهت المكالمة، وانتهى اليوم..

واستغرقَتْ هدى في نومها بعُمقٍ..

وبدأت الأمنياتُ تُلاعبُ أحلامَها على النَّهج التالي:

أعلنـتْ (مُنظمـة الصِّحة العالمية) عـن عدم خُطورة الفـيروس الوبائي (كورونـا) عـلى الرجال، وأنَّ الخطـر يكمُن في نزول السـيدات للعمل.

وأخيرًا.. وبناءً على توجيهات (مُنظمة الصِّحة العالمية)

قـرَّر رئيـس مجلس الدولـة إعطاء إِجـازةٍ لـكلِّ موظَّفات الدولة، سـنةً كاملـةً بأجرٍ مدفـوعٍ.. مـع تمنيَّاتنا بـدوام الصحة للمـرأة المصرية.

اندفعَـتْ (هـدى) إلى (عصام) لتُعلن عن سـعادتها وفَرحهـا بتخلُّصها مـن طلباتـه ووجـوده داخل المنـزل طوال اليـوم، وسـعادتها بإعفائها من العمـل لمدة سـنةٍ، مع الاحتفـاظ بالرَّاتب.

سألها عصامٌ وهو حزينٌ وغاضبٌ:

للدرجة دي كنت حِمل عليكِ يا هدى؟!

هدى: على رأي المثل يا حبيبي:

(جنازة بتار، ولا قعدة الرَّاجل في الدار).

مـرَّت الشـهور، وظـلَّ عصامٌ يعمل طـوال اليوم، ولا يصـل منزله قبل الثانية عـشرة ليلًا.

شـعَرتْ هـدى بالوحـدة والبُعد وفقـدان وجـوده.. وأكثرُ مـا آلَمها هو شـعورٌ انتابهـا بالشـكِّ تجاهـه.. فتوصَّلـتْ إلى قـرار.. مراقبـة عصـامٍ.. وقامَـتْ بتجهيـز أدوات التنكُّـر، وأحكمته.

وفي صبـاح اليـوم التـالي مـن ضبـط الصُّـورة التـي سـتكون عليهـا، (متنكـرةً بـزيٍّ رجـاليٍّ) بـدأَتْ في مراقبتـه.

وصـل عصـامٌ إلى مقـرِّ عملـه، وفي تمـام السـاعة الثانيـة عـشرة ظهـرًا، تـرك العمـل وتوجَّـهَ إلى بنايـةٍ حديثـةٍ بالقُـربِ مـن عمله.

استقبلَهُ الحارسُ:

صبـاحُ الخـير يـا أسـتاذ عصـام، أنـا وَصَّلْـت الطَّلبـات كلَّهـا للمـدام فُوق.

صُدمَـتْ هـدى ممـا سـمعَتْ، فتوجَّهـتْ إلى الحـارس بعـد أنْ اسـتقلَّ

عصـامٌ المصعـد، وحدَّثتْـهُ قائلةً:

إزيَّك يا بلدينا.

نظر الحارسُ إليها مُتشككًا في صوتها:

أهلًا يا أستاذ، خير؟!

هدى: مش ده الأستاذ عصام المتولي؟

الحارس: أيوه هو.

هدي: هوَّا نَقَل هنا من إمتَى؟

الحارس: نَقَل منين يا أستاذ!! ده لسه عريس جديد، ومتجوِّز هنا.

وقعَـتْ هـدى فاقـدةً الوعـي، فحملها عصـامٌ عـلى إثر سُـقوطها على الأرض.

أفاقَـتْ هدى مـن نومهـا، فوجدَتْ «عصـام» يحملُهـا، فَضَمَّتْـه قائلةً: عـارف يـا عصـام إيه أحـلى حاجة حصَلـتْ الأيـام دي، وكنـت بَتمنَّاها مـن زمان؟

سألها مُتعجِّبًا: إيه يا قلبي؟!

هـدى: الحظـر الـلي جمعنا سَـوَا وقَعَّدك معانـا في البيت. كان واحشـني

وجـودك جنبـي قوي يـا حبيبـي.. أحضَّر لـك الفِطار؟

عصام: خايف أتعبك يا حبيبتي.

هدى: تعبك راحة يا حبيبي.. أحلى فطار يا قلبي.

ابتسـم عصـام بعـد أن تذكَّـر مكالمتهـا بالأمـس مـع نـدى، وكيـف تـراءَتْ إلى ذهنـه تلـك الفكـرة الجُهنَّميـة.

وقـال لنفسـه: يـا سـلام! ودي مِيـزة إن الواحد مهندس صـوت! والله ودخـل عليها الحلـم تمام!

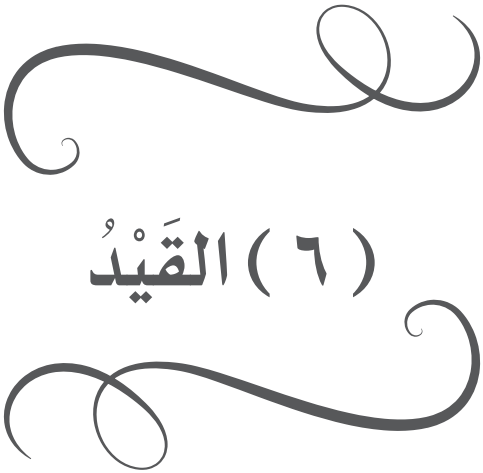

(٦) القَيْدُ

في أحد الأيام وأنا أسيرُ مُتمهِّل الخُطى مُتوجِّهًا إلى منزلي، مررتُ على شارعٍ جانبيٍّ يختصرُ طريقي للبيت، سمعتُ صُراخَ إحدى السيدات، وبكاء طفلٍ صغيرٍ.

تَلفتُّ حولي أبحثُ عن مصدره، فوجدتُ أُمًّا مع طفلها الذي يبدو أنَّه لم يُكمل العاشرة بعد، وهي تَجذبُه من ملابسه، وتَغرسُ أظافرها في كَتفه مُتوجِّهةً به إلى باب منزلها، ثم دَفَعتِ الباب بقوةٍ.

انتابني القلقُ على هذا الطفل، ووجدتُ نفسي أهرعُ إليها، وأتلصَّصُ من وراء الباب هلعًا على هذا الطفل البائس من قسوة تلك الأمِّ.. ما زال الطفلُ يبكي، وما زالت الأمُّ تصرُخ.

ظللتُ أتلفَّتُ حول نفسي حتى وجدتُ نافذةً صغيرةً، ووجدتُ حجرًا كبيرًا تحتها، فوقفتُ عليه وأخذتُ أنظُر من بين فتحاتها إلى مصير ذلك الطفل، فذهلتُ مما شاهدتُ.

وجدتُ الأمَّ تصفعُه على وجهه بقوةٍ، ثم تَضمُّه إلى صَدرها بِكلتَا يديها، وكأنَّها تَغرسُه بين طيَّات صَدرها بحنانٍ، وهي تُردِّدُ على مسا معه :

«حرام عليك.. حرام عليك؛ أنا بَواصِل الليل بالنَّهار علشانك، علشان تِبقَي بَني آدم.. هُنْت عليك بعد كُل التَّعب ده!! هان عليك سَهَري وشُغلي!! هانت عليك قِلَّة راحتي!!

ثم تَركُلُه بقَدمِها مرةً أخرى في قدمِه وهي تُعنِّفه قائلةً:

بس والله ما هَسِيبَك لنفسك، لازم تِفلَح وتِنفَع، حتى لو.. لو..

ثم تلفَّتتْ حولها حتى وقع بصرُها على حبلٍ مُهتَرِئٍ، فأخذَتْهُ وقامت بربط طفلها في مقعدٍ وحيدٍ داخل الغُرفة، وهي تُردِّدُ قائلةً:

أنا هَرْبُطك كده طول اليوم.

الطفل: خلاص يا ماما، آخر مرَّة والله.

الأم بغضب وإصرار:

كل مرَّة بِتقُول كده!! مش هَصَدَّقك تاني.

انتظرْتُ قليلًا حتى رأيتُها جلسَتْ على الأرض، وقد أحْنَتْ رأسها على قدميها وهي تبكي بكاءً حارًّا، كما لو كانتْ فقدَتْ وليدَها.

تركتُها وأكملْتُ طريقي وأنا أحدِّثُ نفسي عن تلك الأُمِّ وولدها.. ما الجُرْمُ الذي اقترفه ليستحقَّ كلَّ هذا اللوم والتعنيفَ؟! لم أَجِد بين أفكاري جوابًا.

ومضت الأيامُ وظللْتُ كلَّما مررْتُ من نفس الطَّريق أنظرُ إلى ذلك الباب القديم أملًا في أنْ أجِدَ الطفل يمرحُ أمامه، أو يخرج لقضاء طلبٍ مِن الخارج.

ثـم مرَّتْ سـنواتٌ ولم أَرَ أو أسـمع شـيئًا، حتـى جاء ذلك اليـوم الذي وجـدتُ فيـه الباب مفتوحًا عـلى مِصرَاعَيـه، وأصـواتُ الزغاريد تَسْري بين جـدران المنزل.

فانتابنـي الفضـولُ لمعرفـة مـا يحـدُث.. نظَـرتُ فرأيْـتُ محـلَّ البقَّـال مفتوحًـا، فتعلَّلْـتُ بـشراء زجاجـة ميـاهٍ غازيـةٍ لـتروي عطشي مـن حَرِّ ذلـك اليـوم، ووقفْـتُ أسـأَلُه بهـدوءٍ:

إيه يا عَمّ أصوات الزغاريد دي كلَّها! خير؟

فأجابني الرَّجل:

ده مـن بيـت أم جمـال جارتنا؛ ابنها -عُقبـال أولادك- نجـح في الثانوية بمجموع كبـير قوي.

فأجبتُـه: ربنـا يوفّقـه ويفرّحـه، هـو كـده، في عيـال فالحـة مـن يومها، بيفَرَّحـوا أهاليهـم.

الرَّجل: الرَّك على الأم يا أستاذ، على الأم دورٌ كبيرٌ في فَلاح عيالها..

تركـتُ الرَّجُـل بعـد أنْ علمـتُ أنَّ تلـك الأم التـي تبـدو قاسـيةً مـن الخـارج، كانـت هـي الأم المثاليـةُ مـن الداخـل.

ومـع مـرور الأيام وظهـور هذا الفـيروس اللعين.. وبعد غَلْـق المقاهي

وكل أماكـن التجمـع، مـررتُ في إحـدى الليـالي مـن أمـام منـزل تلـك الأم، فوجـدتُ قُبالتَـه أريكـةً خشـبيةً، يجلـسُ عليها رجلٌ على مشـارف السـتين، وحولـه لفيـفٌ مـن الرِّجال، وهـو ينادي عـلى زوجته قائـلًا: يا أم جمـال! هـاتي دُور شـاي هنا.

وجلـس يتنـدَّر على الأيـام، وكيف تَعِب وشَـقِى كي يتخـرَّج جمالٌ من كليـة الطِّـب، ليُصبح طبيبًـا من الجيش الأبيـض الذي يتحدثـون عنه في الآونـة الأخيرة في التلفزيـون، وكيف كان هو المُحـرِّك لتفوُّقه.

فذهبـتُ إلى نفـس البقَّـال، وطلبـتُ منـه زجاجـة ميـاهٍ غازيـةٍ، ولكنْ مُعلَّبـة خوفًـا مـن هـذا الفـيروس، وسـألتُه بشـكلٍ غـير واضحٍ:

هـو في إيـه؟! الحكومـة قفلـت القهـاوي، وأنتـم هنـا قلبتـم البيـوت قهـاوي!!

ابتسم الرَّجلُ ابتسامةً حزينةً قائلًا:

والله يـا أسـتاذ هـو أبـو جمـال الـلي رجـع مـن أسـبوع بعـد سـفر طال أكـتر مـن ٥١ سـنة، بعـد مـا البلـد الـلي كان فيهـا رَجَّعـتْ كُل العِمالـة الـلي هنـاك.. وهـو عايـش دُور المُناضل الـلي بيسـاهم بابنه في حـلِّ أزمة فـيروس كورونا.

والسـت أم جمـال -ربنا يبـارك لهـا في ابنها- خايفـة على الـواد، وعمَّالة

تقول:

أنـا إيه الـلي خـلَّاني أربطك؟!! أنـا إيه اللي خـلاني أربطـك؟!! أنا اللي غلطانة..

فابتسمتُ مندهشًا من تصاريفِ القَدَر ونظرة البشر.

(٧) فَريدة

جمعَنا اللقاءُ يومًا...

كانت المرَّة الأولى التي أتوجَّه فيها لزيارة محافظة أسوان، وأيضًا المرَّة الأولى للسفر بمفردي إلى مكان أستعيدُ فيه هدوء نفسي، بعيدًا عن كلِّ المعارف والأقارب والأصدقاء، بعيدًا عن المُشاحنات والانتقادات المُحيطة بنا جميعًا من كل صوبٍ واتجاهٍ..

وفي داخل القطار كان لقاؤنا معًا..

سيدةٌ جميلةٌ ورشيقةٌ.. تخطفُ الأنظار بمظهرها الرَّاقي..

وتُنعش الأنوف برائحتها العَطرة.. تبدو كسيدةٍ من سيدات القصور.. يبدو عليها كما لو أنَّها في العَقد الثالث أو الرَّابع على الأكثر..

اقتربتُ حتى وصلتُ إلى مقعدي، وهمسَتْ لي قائلةً:

- ممكن أنضم إليك؟.. أعتقد أننا سنتشاركُ معًا نفس الكابينة.

أضاءت البسمةُ وجهي.. ووقفتُ لمرورها وأنا أردد:

- بالتأكيد.. تُسعدني صحبتكِ..

جلسَتْ بهدوءٍ على مقعدها. رفعَتْ إحدى ساقيها على الأخرى، مع ضمِّها للخلف بحركةٍ رشيقةٍ..

شـعرْتُ بتنهيـدةٍ صغـيرةٍ زفرَتْهـا دون قصـدٍ وهـي تُلقـي بنظرهـا على روعـة منظـر الخُـضرة الخلابة..

قطعتُ صمتها قائلةً:

هـل تفضِّـلي أنْ تحتـسي شرابًا ما معـي؟.. مـا زال الطَّريق طويـلًا، وأنا في حاجـةٍ إلى فنجانٍ مـن القهوة..

أومأَتْ برأسها موافقةً، ثم همسَتْ بصوتٍ ضعيفٍ:

- فنجان قهوة سادة..

بعـد دقائـق كانـت القهـوة أمـام الطَّاولـة. أمسـكَتْ حقيبتهـا، ثـم أخرجَـتْ منهـا عُلبـةً صغـيرةً أنيقـةً مليئـةً بأشـكالٍ عديـدةٍ مـن أنـواع الحلـوى الفاخـرة، وقدَّمتْهـا لي قائلـةً:

- شكولاتة مع القهوة.

ابتسـمتُ لها وشـعرتُ بالرَّاحة تجاهها، وقمتُ بأخذ إحـدى القطع.. ثـم قـررتُ أنْ أعرِّفها بنفسي:

-اسمي داليدا..

- وأنا فريدة.

اندفعت الكلمةُ مني دون أي تفكير وأنا أردِّد.. وأنت فعلًا فريدة..

سألتني بتعجبٍ:

- لماذا؟

شعرتُ بالتردُّد قليلًا ثم أجبتُها قائلةً:

- أنتِ كلُّ ما بكِ من شكلٍ ومظهرٍ وأسلوبٍ فريدٍ عن الآخرين، أشعر وكأنَّكِ قادمةٌ من أحد العصور الملَكية..

شعرتُ بالحزن يُطفئ جمال عيونها العسلية.. وتنهدَتْ مرةً أخرى أقوى ممَّا سبق، فكانت زفرة من صدرها وهي تُردِّد:

- أنا بالفعل فريدة.. فلا أحدَ غيري قد حصد ما حصدتُه في عمري.

قاطعتُها متسائلةً: ماذا حصدتِ؟

أجابتني بحزنٍ وضعفٍ:

- أنا امرأةٌ في الخمسين من عمري.. حصلتُ على لقب زوجة، وأم، ومطلقة، ثم زوجة أب، وحماة، وأرملة.. حصدتُ كلَّ الألقاب في حياتي، وحصدتُ معها كلَّ مشاعر الكُره والبغض والحقد تجاهي.. لم أرَ يومًا محبةً من أحد.. حتى أبناء قلبي قد انقلبوا ضدي يومًا..

تعجبتُ من حديثها وتساءلتُ:

- إذا اجتمع الكلُّ.. فلا بد من سببٍ؟

تساقط الدَّمع على وجنتيها، واختنقت الكلماتُ على شفتيها وهي تقول:

ولهذا السبب آثرتُ البعد والسفر.. فلن يُصدقني أحدٌ.. فكلماتك هي الأوقع، فلا يجتمعُ الجميع إلَّا على صوابٍ.. ثم قررت الصَّمت..

مرَّ الوقت وانتهت رحلة السفر.. لكنْ لم ينته اللقاء..

فقد كنتُ على موعدٍ معها دون مواعدة.. موعدٍ جمعنا أعوامًا وأعوامًا.. لم تسرُدْ لي فيها كلمةً عمَّا مضى..

ولكني آمنتُ أن ليس كل ما هو بإجماعٍ قد يصيب.. بل تأكدتُ أنَّ الإجماع يأتي أحيانًا بسبب زرع الحقد والحسد في النُّفوس.. حتى ارتوت القلوبُ بالكُره والنُّفور.

تقاسمنا السَّكن أعوامًا وأعوامًا.. كانت نِعم الرَّفيق ونِعم الصديق.. حاوطتني بمشاعرها الفيَّاضة.. أسدلَتْ عليَّ ستارًا من الحنان قد هجرني منذ رحيل أبويَّ.. علَّمتني كيف تبدو الأنثى.. هذَّبتني دون أن تتلقى مني مقابلًا..

ورغم ما فعلَتْه معي -وكعادة البشر أحيانًا- فجأةً شعرتُ بالحقد تجاهها، فكيف لامرأةٍ قد استطاعَتْ أنْ تملك كلَّ الجمال في شخصها..

كلَّ العطـاء والتفـاني.. أنْ يحبَّها الآخرون؟!..

كان لا بـد مـن كُرههـا.. فكرهتُهـا مثلما كرههـا الآخـرون.. فلا أحد يحـبُّ مَن هـم أفضـلُ منه..

لا أحد يقبلُ خَسارته في المقارنة.

(٨) الجِسْرُ

جلستُ بجانبه ينتابني القلقُ الشديد، أنظرُ إليه.. كي أستشفَّ وجهتنا، ولكنِّي لا أرى سوى جُمودٍ تحملُه ملامحه. أُلقي بيدي كي أُعانق أنامل طِفليَّ في المقعد الخلفي، وأنا أنظر إليهما مبتسمةً، كي لا أنقل إليهما قلقي وخوفي من طريقٍ لا أعلم نهايته.

كنت أُلبي كل أوامره كي لا ينصبَّ عليَّ وابلُ غضبه، لْملمتُ داخل حقائبي كلَّ ما نحتاجه في سفرٍ طويلٍ، أحمل على ظهري حقيبةً بها كلُّ ما لنا من أمان.

سرحتُ بخيالي أتذكر حال إخوتنا أهل الكويت، عندما رحلوا عن بلادهم خوفًا من اعتداءٍ سافرٍ تعرضوا له.. وأنا أتساءل: هل هناك معتدٍ قادم، أم أنَّه مجرد تشاؤم؟.. أشعر وكأنِّي لا أرى سوى سرابٍ.

فجأةً صرختُ قائلةً:

توقَّفْ! الطَّريق من الأمام غير مكتمل، ممَّا يعوقُ وصولنا بأمانٍ..

وقف سريعًا ثم ترجَّل من السيارة يرى ما الأمر بالخارج. شعرتُ بأظافر تُغرس في كفي، فوجدتُ صغيريَّ ينتابهما الهلعُ والخوفُ..

ربَّتُّ على أرجلهما قائلةً بصوتٍ حنونٍ:

لا تقلقا، فما دُمتُ بجانبكما فسأظلُّ أحميكما من أي خطر يواجهكما.

التفتُّ أنظرُ إليه بالخارج، فرأيتُه يتقدمُ إليَّ مشيرًا لي بالترجُّل من السيارة، وملامحُه الجامدة لا يظهرُ عليها أي تعبيرٍ يطمئننا! وكعادتي، نفَّذتُ ما أُمرتُ به.

ثم أشار لطِفْلينا أنْ ينضمَّا إلينا.

فمددتُ نظري لأجد أن الطَّريق غير ممهدٍ بالكامل، ممَّا يصعبُ على أي شخصٍ أن يعبره.. ينقصه ذلك الجسر الرَّابط بينهما ليمكننا الانتقالُ من أعلى إلى أسفل.

وأنا أخاطبُ نفسي متسائلةً عن الحلِّ المتاح لنا، فلا أحد يرافقنا، ولا مُنقذ لنا في هذا المكان، ولن يبقى أمامنا سوى الرجوع للخلف بتمهلٍ .

وجدتُه حَمَلَ الصغير ورفعه على يدي اليُسرى، وأحاط بساقيه حول خصري، ثم رفع أخاه على يدي اليُمنى، وأحاط بساقيه حول ساق أخيه. تركني وذهب إلى السيارة حاملًا حقيبة ظهري، ثم بدأ في تعليقها في عُنقي..

أنظرُ إليه في تعجبٍ، لا أقوى على السؤال، ومن حقيبة السيارة الخلفية، كان هناك حبلٌ طويلٌ يكفي لربط مدينةٍ بأكملها، ظلَّ يلفُّه

حـول خـصري ليُحكـم ربطـي جيـدًا، وأنا ما زلـتُ أنظـرُ إليـه دون أن أعـيَ ما يحـدثُ..

ثم تقدَّم لي قائلًا بصيغة الأمر:

هيَّـا، مـا عليـك سـوى الرَّكـض سريعًا ثـم القفـز من أعلى كـي تصلي إلى الجانـب الآخر.

فذهلتُ ممَّا سمعتُه وقلتُ له متعجبةً:

أركض!! بالطَّبع لا.. لن أستطيع.

فزمجر في وجهي غاضبًا ورفع صوته مؤكدًا على رأيه قائلًا:

بل تسطيعين. قلتُ لكِ هيَّا.

ظللتُ أصرخُ بالرَّفض قائلةً:

- لا..

يزداد إصرارًا وتأكيدًا، قائلًا:

- قلتُ بلى.

ثـم تعلَّـق بي وجذبنـي للخلف، ثـم دفعني بقـوةٍ للقفز من أعـلى، فلم تعـدْ قدمـاي تحملني، ولا أملـكُ أجنحةً تمكنني من أن أسـبح في الهواء..

وعندما قفزتُ أدرْتُ جسدي لأستقبل الأرض بظهري، وطفلاي فوق صدري؛ حتى لا أسقط عليهما إذا قفزتُ بصدري، وقد تخيلتُ أني بهذا سأنجو وطفلاي. أخذتُ أحرِّك ساقيَّ حركةً دائريةً سريعةً تشبه حركة الرَّكض ولكنْ في الهواء؛ كي أتمكن من الوصول إلى الطَّرف الآخر، حتى ارتطمتُ بالأرض بقوةٍ، أحملُ صغيريَّ فوق عُنقي المكسور، ودماءٌ تنزفُ من فمي، أنظرُ لأعلى مودعةً حياةً قاسيةً بلا هدفٍ، فرأيتُه يقفز منفردًا ويقفُ بزهوٍ بجانبي، وهو يظنُّ أنني على قيد الحياة، قائلًا بصوت المُنتصر:

ألم أخبركِ بأنكِ تستطيعين أن تعبُري؟! فلن يكون لكِ طريقٌ بدون رؤيتي.

لم أملك الرَّد حينها.. فهل عاد ميتًا بعد موته.. فلا ردَّ لي اليوم، بل لنا لقاءٌ يوم المُلتقى، يشهدُ علينا مَن خلقنا..

(٩) صَديقتي

كنتُ قد انتهيتُ لتوِّي من قراءة بعض المقالات التي تصفُ خَيْبات الأمل في الأصدقاء، والبُعد الذي يولِّد جفاءً قد يطول السحاب، والخوف من الحسد، والكتمان الذي يصلُ لحد السُّخف، والنفوس التي تحوَّلت من خضراء إلى نفوسٍ شديدة السواد.. وكنتُ أتساءل: هل الوقت.. الغربة.. الأطراف الخارجية... هي أسبابُ هذه المقالات؟.. أم أنها حالاتٌ فرديةٌ لا يجب أن نُعمِّمها؟

فتذكرتُ صديقة عُمري، وقد مرَّ علينا وقتٌ طويلٌ لم نتواصل فيه، فهرعتُ وأمسكتُ بهاتفي المحمول واتصلتُ بها، بعد أن تأكدتُ من أن فَرْق التوقيت بين البلدين مناسبٌ لها أيضًا.

وصَلَني صوتُها من الجانب الآخر.. فتجاذبنا أطرافَ الحديث، دون أن يشمل حديثنا أيَّ كلمةٍ من كلمات الفقد والغربة والبُعد أو العتاب.. أكملنا حديثًا قد توقف منذ أكثر من شهر.

اعتدنا أن نُغلق المكالمة دون أن ينتهي الحوارُ بيننا، وكأنَّنا نستمدُّ من الانتظار والتشويق وعدًا بلقاءٍ آخر.

لا يجمعنا شَبهٌ في الصفات أو الأفكار.. نختلفُ أوقاتًا ونتفق أوقاتًا أخرى في آرائنا العامة.. لم تحاول أي منا أنْ تُقنع الأخرى برأيها.

أدركنا من بداية صداقتنا منذ أكثر من خمسة وعشرين عامًا، أن

للصداقـة حقوقًا وحـدودًا.. لم نوثِّقها في أوراق، بـل حُفرت في الأذهان.

كنتُ أول مَن شاركها فرحتها بحملها الأوَّل..

وكانت أوَّل مَن عَلِمَ بخطبتي.

كبرنـا وكبرتْ بيننـا الذكريـات.. فرَّقتنا البـلاد، وانتصرنا عـلى الفُرقة بحفْـر أواصر الصداقـة داخلَنا..

مكالمتنـا الشـهرية كانـت تمتـدُّ لسـاعاتٍ.. نسرد فيهـا كلَّ ما عايشـناه في الحياة.

لم نشـعر يومًـا بالمنافسـة، ولم تزوِّرنـا الغيْرةُ يومًـا.. ولم أنسَ مشـاعرها الصادقـة وقـت إصابتـي بالفـيروس اللعـين، كنـتُ أسـتمعُ لبكائهـا ولهفتهـا وخوفهـا الظَّاهـر مـن رجفـة صَوْتهـا.

ما أجمل الصداقة!.. وما أشقى الحرمان منها!..

(١٠) الوَردةُ الحَمراءُ

بعد رحلةٍ طويلةٍ ومرهقةٍ بدأتْ من المنزل ما بينَ تجهيزِ طَلبات الأولاد ومُناقشات الزَّوج التي لا تهدأ، حتى نصلَ لِوجهتنا.. وبعد ترتيب كلِّ مُستلزمات السَّفر في حقائبنا..

أخيرًا أنا داخل الجناح الخاصِّ بي في فيلَّا الساحل، وقبلَ أنْ أُفرِغ مُحتويات حقيبتي داخل خِزانة الملابس.. تمهلتُ قليلًا لألتقطَ أنفاسي؛ فقد أُنهكت في ترتيب ملابس زوجي والأبناء.. وبعد أن انقضى النَّهار بأكمله، هأنذا الآن أبدأُ في ترتيب ملابسي وأشيائي الخاصة.. يا الله! لقد نسيتُ إحضار كنزة البحر الجديدة، وأيضًا أدوات الزينة، وواقي الشمس..

وقفتُ قليلًا أنظرُ إلى مُحتويات الحقيبة بتعجبٍ، أتساءلُ: ماذا تذكرتُ لإحضاره لي، حتى تلك الرواية التي طال انتظارُها أسابيع وأسابيع كي أستمتعَ معها وبها أمامَ البحر مع نَسماتِ الهواء العليل.. نسيتُها، كما نسيتُ العديد من أشيائي..

هل هذا هو ما يُطلق عليه مُسمَّى المسئولية.. أم الأمومة؟

بضعة أعوامٍ قليلةٍ مع بعض التغيُّرات قد تعيدُ تشكيل حياتنا على نقيض ما اعتدنا عليه..

بعد أن أتممتُ مهمتي، جلستُ على المقعد، وتركتُ نفسي، أسبح في

الماضي وذكرياتي عن تلك الفتاة المرحة، التي كانت تستقبلُ الصيف بملابسَ ملونةٍ بألوانٍ صاخبةٍ، وقبعات رأسٍ كبيرةٍ تحمي من أشعة الشمس.. ثم ذلك الجهاز الصغير المُسمَّى (**walkman**) ذي سمَّاعات الأذن الصغيرة.. وعلى نغَمات أغنيتي المفضَّلة (ولا عُمري نسيت الليل اللي انسال على شعرك.. ولا عُمري نسيت القلب اللي احتار في مشاعرك)..

لقد كانت تجلسُ تحت المظلَّة تتخفى وراء نظَّارتها الشمسية، تشاهدُ في زهوٍ نظراتِ الإعجاب المُرسلة إليها دون أن يلاحظها صاحبُ النَّظرات المفتون بها.. مُدعيةً عدم الاهتمام أو الانتباه.. تسبحُ في الأحلام مع ذلك الفتى الطَّويل الذي يُتابعها عن كَثبٍ، فتتخيلُه وهو يحاولُ الفوز بها متخطيًا العديد من الشَّباب حولها.. متوددًا لها ولأسرتها..

ثم أخيرًا تتزوجه بعد إلحاحٍ، ليُلبي لها كلَّ طلباتها، حتى قبل أن تطلبها.. سابرًا غور خيالها وأحلامها، مُسخرًا نفسه لها..

فتستيقظُ صباحًا على تلك الوردة الحمراء في يده، يُداعب بها أنفها كي تنتبهَ له وتتركَ فِراشها.. يُداعب شعرها بحنانٍ ويقبِّله بعد أن يستنشق رائحته الخلَّابة..

وفجأةً، انتبهتُ على صوت صغيرتي قائلةً:

- هل غفوتِ وأنتِ جالسةٌ؟

فأجبتُها متسائلةً:

- ماذا تُريدين الآن؟ ألم أنتهِ من ترتيب أشيائك؟..

تجيبني الصغيرةُ بلا اكتراثٍ:

- يقول لكِ والدي: أحضري له القهوة سريعًا، وأتقنيها؛ لأنه لن يشربها إذا لم يكن (لها وش).. ولا تنْسَي شحن باقة النِّت اليوم. بعدها استدارت الصغيرةُ كي تترك الغُرفة، ثم -وكأنَّها تذكرَتْ أوامر أخرى تحملُها- هرشتْ رأسها بأطراف أصابعها قائلةً: نسيتُ أن أخبركِ أن والدي يقول لك، إنَّه دعا أصدقاءه على العَشاء اليوم، ويطلبُ منك تجهيز شيءٍ يليقُ بضيوفه.. عمو نبيل وعمو حسام.

(١١) الاختياراتُ

في موعدِ لقائنا الأسبوعي أنا وصديقاتي الثلاثة.. سمر، غادة، وهدى.. قررتُ أن أقيم تحديًا بينهن، وكان التحدي على النحو التالي:

أحضرت (طحينًا.. زبدةً.. حليبًا.. بيضًا)، وأعطيتُ كلًّا منهن نفسَ المُكونات ونفسَ المقادير، وتركتُ لهنَّ حرية اختيار ما يصنعنه، وحدَّدتُ لهنَّ وقتًا لا يتعدَّى خمسًا وأربعين دقيقةً.. ثم الحُكم النهائي سيكونُ لي على ما أنتجن.

بعد انتهاء الفترة، ذهبتُ إلى صديقتي الأولى (هدى) فوجدتُها قد أعدَّت أربع قطع من البسكوت، غير مُتقن الصُّنع، مع ترك باقي المُكونات.. فسألتُها: لم تركتِ باقي المُكونات واكتفيتِ بتلك الأربعة؟!

فأجابتني:

– نحن أربع، ولا داعي لإعداد المزيد.. تلك هي قُدراتي.. لا أريدُ أن أحمِّل نفسي ما لا طاقة لي به..

ثم تركتُها وذهبتُ إلى تلك الرَّائحة الزَّكية القادمة من قِبَل غادة، فتقدمتُ منها ووجدتُ قالبًا من حلوى الكيك جميل المنظر، زكي الرَّائحة.. فسبقتني يداي لأتذوقه، وأنا أسألُها: لم قررتِ إعداد هذا القالب؟..

فأجابتني قائلةً:

– يمتـاز الكيـك بالرَّائحـة الزَّكية التـي تفوحُ خارج الجـدران فتجذب المـارَّة قبل أهـل الدار..

بهرني رأيُها، وإن كان مذاقُه لا يعبِّر عن رائحته.

ثـم اتجهـت إلى سـمر، فوجدتُهـا أعـدتْ أنواعًـا مختلفـةً مـن الخبـز، فتعجبـتُ، وسـألتُها: لمـاذا وقـع اختيـارك عـلى الخبـز؟..

فأجابتني:

– يـا صديقتـي، الخبـزُ طعـامُ الملـوك في قصورهم، وطعامُ المسـاكين في بيوتهـم.. الخبـزُ في البيـت سـترٌ.. الخبزُ للمسـكين طعامٌ..

يـا صديقتـي، إذا ضاق الحـالُ فالخبزُ طعامي، وإذا ترفَ الحالُ فالعسـل حُلوي..

نظرتُ إلى ثلاثتهنَّ وأنا أخاطبُ نفسي قائلةً:

عجبًـا! نفـسُ المُكونات ونفـسُ المقادير، ولكـنْ بأيديهـنَّ وباختيارهنَّ أخرجـن منتجـاتٍ متنوعـةَ الشـكل والطَّعم، وأيضًـا الهدف..

فهنـاك مـا هـو زكـي الرَّائحـة، وهنـاك مـا هـو بـلا طَعـم أو رائحـةٍ، وهنـاك مـا يحمـلُ بهجـة الرؤيـة، ويـسرُّ النفـس، ويحمـل الرِّضـا..

يهبُنا الله عزَّ وجلَّ جميعًا كلَّ النِّعم بنفس المقدار، ويتركُ لنا الاختيار.. فمنَّا مَن اختار الضَّعف وعدم استغلال نعمه ورفضها، ومنَّا مَن تباهى بها دون أن يشكره عليها.. ومنَّا مَن عدَّد نعمه وحافظ عليها بعد أن أحسن عملًا بها..

سُبحان مَن يرزقنا، ونحن نختار، ثم نندهش من نتائج اختياراتنا!

(١٢) ظَمأُ الرُّوحِ

أتساءلُ: متى أصبحتُ تلك المرأة؟! فجأةً وجدتُ نفسي بلا هُوية؛ تلك القيودُ التي تُكبلني من كلِّ جانب، أرهقتني.. أفقدتني القُدرة على الحياة.. فأنا لا أملكُ رفاهية الاختيار أو التعبير عمَّا يروقُ لي.. ممنوعةٌ أنا من الحياة..

فأنا أسيرةُ الرَّأي والجسد.

أبسطُ الأشياء تُسعدني، ولكنهم يستكثرونها عليَّ، لا يسمحون لي بمساحاتٍ صغيرةٍ تجعلُ رُوحي ترتاحُ وتهدأُ.. فعندما أشاهدُ أفلام جوليا روبرتس خِلسةً، أشعر بأنفاسٍ كثيرةٍ تحيط بي من كل جانبٍ، أصحابها ينظرون إليَّ بترقبٍ وانتظارٍ.. يتساءلون مع كل همسةٍ لي: هلْ انتهيت؟

وعندما أختلي بنفسي كي أقرأ لكاتبي المُفضَّل، أو أستمتع بكوب الشاي ذي الرَّائحة المُنعشة، أرى العيون حولي تحثُّني كي أنتهي سريعًا، فرغباتهم أهمُّ من أبسط أشيائي!

يؤلمُني جُوع رُوحي، المسجونة داخل جدران كِيان لا يراني أو يسمعُني.. يعتصرُني ذلك الجوعُ ويفتِّتني، وعندما أطالبُ بحقي، يمدُّون أيديهم بالفُتات، ثم يتساءلون بلا صبر: هل شبعت؟

أشعرُ بالظَّمأ يكاد يُهلكني.. فيقطرون الماء على وجهي، ثم يتساءلون: هل ارتويت؟

يمرُّ الوقت.. تتيه فيه عناوينُ الكتب والرِّوايات..

يتيه فيه لحنُ الأغاني والكلمات.. يتيه فيه عِطرُ الفُل والرَّيحان..

يمرُّ الوقت وتتيه معه معاني الحياة..

كرهتُ كوني امرأةً خُلقت في رحاب أشباه الرِّجال.

(١٣) عازفٌ بلا قِيثارةٍ

استيقظ

الـزَّوج صباحًـا. لم يجد زوجتـه بجانبـه كعادتها كلَّ يـوم.. توقَّـع أنْ يجدهـا تعـدُّ طعـام الفطـور.. إلَّا أنـه لم يجـد لهـا أثـرًا في جميـع أركان المنـزل.. فتح خِزانـة الملابس يسـتعدُّ للذَّهـاب إلى عملـه، لكـن هالـه مـا رأى عند فتح ضلفـة الخِزانـة الخالية مـن ملابـس زوجته..

رفـع هاتفـه يحدِّثها، لكنَّه وجـد هاتفها مغلقًا. ذهـب إلى ابنته الصُّغرى في غُرفتهـا فلم يجدهـا أيضًا، ولم يجد ملابسـها هي الأخرى!

اتَّصـل بابنـه الأكـبر فلـم يجـد عنـده علـمًا بـأي شيءٍ. جُـنَّ جنونـه، يتسـاءل: لمـاذا تركَـتْ زوجته الحبيبـة وابنته المُدللـة منزلـه دون إخباره؟ مـاذا حـدث بينهـما أدَّى لذلـك؟

كانـت ودودةً الليلـة الماضيـة؛ أعـدَّت طعـام العشـاء بـما لـذَّ وطـاب، وهـي تتدلَّـل بابتسـامتها الصافيـة المعتـادة. ضحكا وتسـامرا لسـاعاتٍ حتـى ثمُـل الـرَّأس مـن الضَّحكات.

ذهـبَ إلى مـكان عَملهـا فلـم يجدْهـا قـد داومـت اليـوم. نظـر إليـه زملاؤهـا في العمل نظـرةً لم يفهمها جيـدًا. هل هي نظرةُ لومٍ، أم تشـفٍّ، أم شـفقةٍ...؟ لا يعلـم. قرَّر أن يحـدِّث صديقتها المُقربة عـلى انفرادٍ؛ فهو لا يريـدُ أن يُثـير تسـاؤلاتهم أكثر..

سألها والقلقُ ينهشُ قلبه:

- هل تعلمين أين ذهبت؟

أومأتْ برأسها قائلةً:

- نعم، أعلمُ مكانها..

فتساءل: لماذا ذهبَتْ وتركتْني؟ وأين ذهبت؟

أجابَتْه بسؤالٍ:

- تسـألُ الآن لمـاذا ذهبـت؟... مَـن يُمكنـه الـرَّد عـلى هذا السـؤال هو أنـت.. لكـنْ قبـل أن تُجيـب، عندي لك سـؤالٌ:

ماذا أضفتَ لها طوال الثلاثين عامًا الماضية؟

وقـف الـزَّوج متعجبًـا من هذا السـؤال.. وقـف يفكِّر فيما ألمحـتْ إليه تلـك المـرأة.. ما الـذي تعلمُـه ولا يعلمُ هو عنه شـيئًا؟..

ألم يكـن هـو الـزَّوج الحنـونُ المُحـب.. مـا هـو المطلـوبُ مـن الـزَّوج ليقدِّمـه أو يُضيفـه لزوجتـه؟.. فنظـر إليهـا وتمتـم قائـلًا: «الأمـان».

فسخرَتْ منه قائلةً: حقًّا الأمان!.. محتمل!!

تركهـا وذهـب إلى منزلِـه بعد أنْ أصابتـه رجفةٌ قويةٌ؛ رجفةٌ تُشـبه تلك التـي أصابتـه يـومَ أنْ فَقدَ أمَّـه.. نعم، كانت لـه أمٌّ وابنـةٌ وزوجةٌ.. كيف هانت عليهـا العِشرة؟!

تدثَّر بالأغطية داخل فِراشه كما لو كان في شهر ديسمبر المُثلَّج وليس أول أغسطس الحارِّ.

❋❋❋

وقف يطرُق الباب قلقًا ممَّا حدث بين والديه، فاستقبلَتْه شقيقتُه الوسطى. اندفع إلى والدته متسائلًا:

- ماذا حدث يا أمِّي؟ لماذا تركتِ بيتكِ؟

تبادلَتِ الأمُّ النظرات بين أبنائها، ثم بدأَتْ حديثها بحِدَّة وانفعالٍ قائلةً:

عندما التقيتُ به أوَّل مرةٍ كنتُ أعمل.. كنتُ شخصيةً ناضجةً تستطيعُ أن تعول نفسها. كان يكبُرني بخمسة أعوامٍ.. وجد فيَّ كلَّ مواصفات الزوجة الذي تمنَّاها يومًا،

ولم أجد به ما يجعلُني أتردَّد في الزَّواج منه.. وفي غُضون عدة شهورٍ تزوَّجنا.. وجدتُه رجلًا يقدِّس الحياة الزَّوجية.. منظمًا ودقيقًا في كلِّ تصرُّفاته.. لم يمضِ العامُ إلَّا وقد رزقنا الله بكَ.

ومنذ هذه اللحظة تغيَّرتْ طريقة تفكيره، فما كان منه إلَّا أنَّه طلب

منـي راتبـي كامـلًا، بعـد أن داومتُ عمـلي بعد انقضـاء إجـازة الوَضْع، وعنـد استفسـاري عن السَّـبب كانت إجابتُـه بكلِّ هـدوءٍ وصرامةٍ في آنٍ واحدٍ:

- أصبح الآن لدينا ابنٌ يحتاج إلى ادِّخار المال.

لم يكـن هنـاك مجـالٌ للنقـاش بيننـا يسـمح لي بمعرفـة آليـة الادخـار.. فرضخـتُ لمـا طلبه دون أنْ أعـترِض.. ودون قلقٍ؛ فأنـا أعرفُه.. أو كنتُ أعرفُه!

تكفَّـل هـو بكافـة مصاريـف المنـزل ومصاريفـي الشَّـخصية، ولكـن بالطَّبـع في أضيـق الحـدود، فـكان مـصروفُ يومـي يكفـي المواصـلات وكوبًـا مـن المشروبات في مقـرِّ العمل. كنتُ أقـف يوميًّا أمامـه كالطِّفلة في انتظـار المـصروف.. لم أتـبرَّم ولم أغضب؛ فهو منظـمٌ ودقيقٌ ويتصرَّف بحكمةٍ..

كان هـو من يقـومُ بـكلِّ شيءٍ.. كلِّ شيءٍ، يُحضر لي كسـوةً محدودةً كلَّ عـامٍ، وبالطَّبـع لا أملكُ رفاهيـة الاختيار.. يختـارُ لي ويحدِّد، وأنـا أطيعُه بحُـب ورضا.. ظللـتُ على هذا الوضع سـنواتٍ وسـنواتٍ.

كانـت صديقـاتُ العمـل يتَّهمْنني بالحرص الشـديد وعدم مُشـاركتي لهـم في أي احتفـالٍ أو مناسـبةٍ؛ فأنا دائـمًا خارج مُجاملاتهـم أو التزاماتهم. كـما تعلـم.. في العمـل، الزُّمـلاء يتعاونـون، ويتشـاركون مُناسـباتهم

وظروفهم الصعبة.. دائمًا أنا خارج كل ذلك، ولم أشرح أو أفسِّر سبب بُعدي عن تكافُلهم.

لم أذهب إليه يومًا شاكيةً من أثر كلماتهم عليَّ.. لم أتوقَّف شهرًا عن إعطائه راتبي، حتى تخرَّجتَ من جامعتك.. وتسلَّمتَ وظيفتك..

وجدتُه يومًا ينفردُ بي في غرفتنا، ليُخبرني برغبته في البحث لكَ عن زوجةٍ تلائمك، وكان يتلاعبُ بي قائلًا:

- ابحثي له عن زوجةٍ تُشبهكِ، وإن كنتُ أشكُّ أن هناك مَن تُشبهكِ.

إطراؤه أسعدني، لكني في نفس الوقت تعجَّبتُ من حديثه، واستنكرتُه قائلةً:

- هل تريدُه أن يتزوَّج في هذا العُمر، قبل أنْ يُعدَّ نفسه لمصاريف الزَّواج ومسؤولياته؟

فلطمني ما صرَّح به حينها عندما قال:

- لا تقلقي؛ فقد أعددتُ كلَّ شيءٍ. منذ أنْ رزقنا الله به وأنا أدَّخر مبلغًا من المال في حسابٍ يخصُّه كلَّ شهرٍ، وقبل أن يكتمل السنُّ القانوني، قمتُ بسحب رصيده من البريد وشراء شقةٍ صغيرةٍ بالقُرب من منزلنا، حتى لا تشعري ببُعده عنكِ وتسعدي بحمل

أحفـادكِ، وهـا هـو العَقـد..

كادت الأرضُ أن تَميـد بي.. لـماذا لم يُخـبرْني بهـذا الأمـر مـن قبـل؟ لماذا لم يُشركني بـه؟ أليـس المالُ مـالي؟!! أليـس من حقِّـي معرفةُ مـا يُخطِّطه لحيـاة ابني؟

لكنـي تغاضيـتُ عن الأمر وقـرَّرت أن أعـبر معه الحيـاة، وأبحث لك عن زوجة المسـتقبل، وسَـخِرتُ من حـالي قائلةً:

– الحمـد لله أنَّـه تـرك لي أمـرًا في الحياة، كاختيـار زوجةٍ لابنـي، لكنك أيضًـا لم تـترك لي أي حـقٍّ، بـل عارضتَنـي بقـوةٍ، لم تـرضَ عـن أيٍّ ممـن عرضتهـنَّ عليـك مـن فتيـاتٍ، وقـررتَ أنْ تتـزوَّج زميلتَك.

ولم يُحـاول أنْ يُسـاندني ويُثنيـك عن اختيـارك، بل باركـه دون إرادتي.. لم أكـن يومًـا أُمًّـا متحكمةً، لكنَّهـا فرحة مَن وجـدا أخيرًا حـقَّ الاختيار والمشـاركة.. لم يكـن اختيـار زوجتـك بالنسـبة لي سـوى فرصـةٍ منحني إياهـا لأُشـاركه برأيي، بعد أن سـلبني مـالي وإرادتي..

وتزوجْـتَ أنـت بمَـن أردتهـا، وبعـد فـترةٍ، علمتُ مـن زوجتـك أنَّها تدَّخـر كلَّ راتبها في حسـابها البنكـي، حتى بعد أنْ رزقكـم الله بالأبناء.. ولم تصنـع صَنيعـة والدك..

ثـم مـرَّت الأيـام وتخرجَـتْ شـقيقتك، وبـدأ يتهافـت علينا العِرسـان

طالبين الزواج، حتى رزقها الله بالزَّوج الصالح.

وقتها تساءلتُ في حيْرةٍ قائلةً:

- كيف لنا أن نتدبَّر تكاليف الزواج؟

ابتسم كعادته قائلًا:

- سيدبِّر الله أمر كلِّ شيءٍ، لا تقلقي..

تمرُّ الأيام والشهور، ويزداد القلق بداخلي، أريد أنْ أعلم كيف سنتدبَّر الأمر؟

حتى اقترب وقت الزَّواج، وعلينا الوفاء بما تمَّ الاتفاق عليه.

وفي ظهيرة أحد الأيام أثناء فترة الدَّوام هاتفني قائلًا:

- استعدي مساءً أنت وابنتك لشراء كلِّ طلبات زواجها.

ثم أغلق الهاتف وتركني في ذهولٍ، كيف تدبَّر الأمر؟!

لم أطق صبرًا حتى ينتهي وقت العمل.. فتركتُه وذهبتُ إلى المنزل لأجد والدك ومعه حقيبةٌ بها مبلغٌ كبيرٌ من المال.. اندفعتُ متسائلةً:

- هل أخذت قرضًا بضمان عملك؟

ابتسم غير مُبالٍ:

- ولماذا أقترض؟

- إذن، من أين لك هذا؟

أجابني مبتسمًا:

- من حُسن التدبير.

وهنا صارحني أنَّه كان يدَّخر جزءًا آخر من راتبي في شهادات طويلة الأجل باسم شقيقتك من أجل تلك اللحظة، وقد حان اليوم موعد استردادها.. شعرتُ بخيبة أملٍ لم تصبني من قبل. لم أتفهَّم حقيقة مشاعري وقتها! هل من المفترض أن أكون سعيدةً لسِتر الله لي ولأسرتي بزواج أبنائي؟.. أم أحزن على عدم مُشاركتي لزوجي في أي أمرٍ يخصُّ حياتنا؟!

كيف جرؤ على أن يحصرني في هذا الدَّور؟! يسلبني إرادتي وحقِّي في مالي دون أن يرفَّ له جفنٌ.. وهل هو كما وصف نفسه أحسنَ التدبير، أم هو أخبث التفكير؟!..

كلُّ أصدقائنا وزملائنا كانوا يحسدونني على أبيكم، ذلك الرَّجل الحكيم الرَّزين، الذي استطاع أن يزوِّج اثنين من أبنائه وهو ما زال شابًّا.. لا أحد يراني.. لا أحد يقدِّر لي دوري.. حتى هو لم يُثن يومًا على تضحيتي وعلى رضائي!

ومنـذ شـهور بعـد أن حصلتُ عـلى إرثي، قـررتُ أن أقتطع جـزءًا منه لقضـاء مناسـك الحجِّ، بعد أن قـررتُ ألَّا أصارحه بالقيمـة الفعليَّة لما آل لي مـن مـيراثٍ؛ حتـى لا يفكر بالسـفر معـي، أو يتطرَّق ذهنـه للحصول عليـه لغرضٍ آخـر لا علم لي بـه كعادته.

وواجهتـه قائلـةً وأنـا سـعيدةٌ أنني أخيرًا سـأتخذ قـرارًا يخصُّني وحدي ولا يد لـه فيه:

- قررتُ أن أسافر لقضاء مناسك الحجِّ هذا العام..

نظر إليَّ مبتسمًا بهدوئه المستفز قائلًا:

- فكـرتُ في هـذا الأمـر منـذ أسـبوعين قبل أن تقـرري ذلـك، بعد أن علمـتُ أنـكِ سـتحصلين على إرثـكِ، وعلمت أنَّـه يكفـي ويفيض؛ لذا فقـد قدَّمـت لـكِ أوراق حصولـكِ عـلى جـواز سـفر كـي تتمكنـي من التقديـم عـلى تأشـيرة الحـجِّ.. ها هـو جواز سـفرك يـا حبيبتي.

أصابنـي غضـبٌ شـديدٌ وثـورةٌ تملَّكـت كل أوصـالي. لم يـترك لي أي فرصـةٍ لاتخـاذ أي قـرارٍ بمفـردي.. أنـا لسـت عروسًـا مـن الماريونيـت يحرِّكهـا بأطـراف أصابعـه.. قـررت تأجيل السـفر للعـام القـادم ولكنْ لـن أُعلمـه.. وانتظـرت حتى تنتهي شـقيقتك مـن امتحاناتهـا، وبعد أن التحقـت بكُليـة الطـب كـما كانـت تأمُـل، التمعـت الفكـرة في رأسي.

نعـم، سـأحظى بحقِّـي في الحيـاة كـما أريـد.. لـن أتركه يديـر لي حياتي كـما كان بعـد الآن. قـررتُ أن أتعلَّـم ممَّـا مضى.

ذهبـتُ إلى أحـد البنـوك ووضعتُ قيمة إرثـي بالكامل في وديعـةٍ بعائدٍ شـهريٍّ، ثم اسـتأجرتُ بهـذا العائد شـقةً صغـيرةً بالقرب مـن الجامعة، جهزتُهـا ببعـض قطـع الأثـاث كـما تـرى أمامـك الآن؛ كـي تصلـح للانتقـال إليهـا.. وتقدَّمـت بطلـب نقـلي إلى العمـل هنـا في المدينة.

اسـتطعتُ أن أخدعـه كـما خدعنـي طيلـة الأعـوام السَّـابقة، وبعـد أن نفَّـذت خطتـي، كنـت أفيـض دلالًا عليـه، وأغدق عليـه كلـماتٍ حانيةً تفـوق كل ما سـبق مـن أعوام.. حتـى لا يشـكَّ في مُخططي.. وفي مسـاء الأمـس بعـد أن أعـددتُ له طعام العشـاء، وضعـت له القليل مـن المنوِّم في كـوب الشـاي.. ذهـب في سُـباتٍ عميقٍ أتـاح لي أن أُلملم كل أشـيائنا أنـا وشـقيقتك في حقائـب سـفرٍ، ثـم اسـتعنتُ بأحـد صديقـات العمل التـي حـضرت بسـيارتها أسـفل المنـزل؛ لتقلَّنـا إلى منزلنـا الجديـد، بعد أن تركـتُ حيـاة التحكُّـم والتجـبُّر، لأبـدأ حيـاةً جديـدةً مليئـةً بالحرية والانطـلاق.. أنـا سـيدةُ نفـسي، والقـرار قـراري.. ليـس مـن السَّـهل يـا بنـي عـلى إنسـان أن يعيـش وكأنَّـه ظـلٌّ بعـد أن كان شـخصًا مؤثـرًا صاحـب قـراره. أبوك قتـل روحـي وجعلني صـورةً لامرأةٍ بـلا ملامح أو روح..

أنهت الأمُّ حديثها بدقات قلبٍ عنيفةٍ تخترق صَدرها.. أنهت حديثها كنهاية العدَّاءة في ماراثون للجري.

باغتها الابن متسائلًا بهدوئه الموروث من والده:

- وهل وجدتها يا أمِّي؟

عاتبته شقيقته الكبرى بالنَّظرات قبل أن تجيبه الصُّغرى مندفعةً قائلةً:

- ستجدها في أيَّامها القادمة بالتأكيد.. لم يراعِ أبي ما قدَّمته أمي لنا وله من قبلنا على مدار كلِّ تلك الأعوام.. كان يقف مزهوًّا بما فعل ولم يذكُرها يومًا... لكنْ للأسف لا يشعر الرِّجال بما يفعلونه من أذًى للنساء بتهميشهم هكذا.. من حقِّها أن يقول ماذا قدَّمت لنا؛ لأنها قدَّمت الكثير..

اكتفى شقيقها بالنَّظر إليها دون أن يردَّ عليها، والتفت إلى شقيقته الوسطى متسائلًا:

- هل ستقضين اليوم هنا أم ستذهبين إلى منزلك؟

فأجابت مندفعةً:

- بل سأذهب معك، فلن أُخبر زوجي بما حدث.

عاتبتها والدتها قائلةً:

- لن تخبريه!! لماذا؟ هل تخجلين ممَّا فعلت؟

أجابتها ابنتها بخوفٍ:

- ماذا أقول له يا أمِّي؟ تركت أمي المنزل لأنَّ والدي كان يحصل على راتبها منذ ثلاثين عامًا!!

فتمتم الأخ قائلًا:

- أمي، لن نقول شيئًا حتى يتسنَّى لنا ولك إعادة التفكير مرةً أخرى.. لم يكن تسلُّلك مساءً بالأمر الهيِّن يا أمي، ولا يجب أن يعلم به أحد..

سأمرُّ عليك غدًا صباحًا.

****

سمع صوت باب المنزل، ظنَّ أنها رجعت.. نظر إلى الباب منتظرًا إقبالها عليه.. لم تكن هي، بل كان ابنه هو من جاء.. اقترب منه يطمئنُّ عليها..

فسألة:

- هل علمتَ بمكانها؟

فأجابه:

- نعم، وقابلتها.

أزاح الأبُ غطاءه ونهض قائلًا: سأرتدي ملابسي وأذهب إليها..

فأوقفه ابنه قائلًا:

- ليس اليوم يا أبي.. اتركها تهدأ قليلًا.

تنهَّد الأب متسائلًا:

- تهدأ قليلًا!!.. من ماذا؟

ظلَّ الابن صامتًا.

فصاح الأب قائلًا:

ماذا قالت لك؟ أجبني!!!

أجابه متلعثمًا: تريد الطَّلاق.

- والسبب؟

- تتهمك بعدم مُراعاة وجودها على مدار كلِّ تلك الرحلة.

- كيف؟

بدأ يقصُّ على مسامعه كل ما حدَّثته به والدته منذ قليل.

صمت الأب قليلًا.. ثم نهض من مكانه متوجهًا إلى المطبخ، فلحقه الابن متعجبًا وهو يراه يفتح البرَّاد ويُخرج منه قطعةً من اللحم المفروم، ثم أشعل الموقد، ووضع وعاءً كبيرًا عليه، وتركه حتى يسخن جيدًا، ثم وضع قطعة اللحم داخله، فتصاعدَتْ منه أدخنةٌ قويةٌ ناتجةٌ عن صدمة اللحم بسبب الحرارة المرتفعة، كتلك الصدمة التي تلقَّاها والده اليوم.. ثم بدأ بتقطيع البصل إلى شرائح صغيرةٍ فتفيض عيونه بالدَّمع، وكأنَّه يبكي ألمًا على ما أصابه.

كانت حركاتُه بطيئةً يبدو عليه الإنهاك والوهن.. تقدَّم الابن إلى والده محاولًا مساعدته، لكنه أوقفه بيده وأكمل إعداد تلك الوجبة المفضَّلة لديهم.. ثم وضع صحنين على الطَّاولة، وأشار لولده أن يشاركه الطَّعام..

جلس كلٌّ منهما في مكانه المعتاد، وبدآ يتناولان الطَّعام في صمتٍ، حتى اخترقه الابن قائلًا:

- لم تستطع زوجتي أنْ تطهو تلك الوجبة مثلما اعتدناها منك يا أبي..

ثم استرسل في حديثه قائلًا:

– لـن أنسـى فرحتنـا كلَّ خميس عنـد قدومنا مسـاءً بعد زيـارة جدتي، وقـد وجدنـاك قـد أعـددتَ لنا تلـك الوجبة الشـهية.. أو ساندوتشـات الكبـدة الإسـكندراني.. أو شـطائر البيتـزا التـي كانـت تعـدُّ اختراعًـا آنـذاك.. كنـت دائـمًا أتـرك بعضًـا منهـا كـي أتناولـه في المدرسـة يـوم السـبت.. كنـتُ أشـعر بالزَّهـو مـن نظـرات أصدقائـي لها.

هـل تتذكَّـر يـا أبي عندما أُصبـتَ إحدى المـرَّات بتعبٍ أعاقـك أن تعدَّ لنـا طعامًـا يـوم الخميـس، فتطوعت أمـي بإعـداده لنـا، لكنَّه كان شـيئًا آخـر لا علاقة لـه بذلك..

ابتسـم الأب بحـزنٍ وظـلَّ صامتًا؛ فقد كانـت كلماته لها وقعٌ كالسَّـهم النافـذ في القلب..

فتحدَّث الأب قائلًا:

– كان قـرار والدتـك قـرارًا صائبًا، جامعة شـقيقتك تبعدُ عـن مدينتنا أكثـر مـن سـاعةٍ ونصـف، وهـي جامعة عمليـة تحتـاج الحضـور يوميًّا، وليـس مقبـولًا أن نـترك شـقيقتك بمفردهـا في مدينـةٍ أخـرى.. القـرار الصائـب هـو انتقـال والدتـك معها..

هل تتفهَّم ما أقصده؟!!

أشـار الابـن بالإيجـاب، لكنَّـه لم يفهـم.. هـل تلـك الكلـمات تعنـي مُوافقـة الأب عـلى الانفصـال؟.. هـل سـيرضخ هكـذا دون محاولـةٍ؟ أسـئلةٌ كثـيرةٌ دارت في رأسـه لا إجابـة لهـا إلَّا عنـد والـده.

***

مرَّت عدة أيامٍ لا يفارق الأب منزله..

يتناوب عليه الأبناء..

لا يـترك لهـم مجـالًا للحديـث فيـما حـدث.. طلـب منهـم إحضـار شـقيقتهم الصُّغـرى..

وبعد أيامٍ اجتمعوا معًا..

ولأوَّل مرةٍ منذ أن وعوا الدُّنيا.. يرون الدَّمع يتلألأ في مُقلتيه..

لم يتحدَّث عن والدتهم..

أعدَّ لكل منهم الطَّعام المفضَّل له..

أراد أن يُخبرهم بالحقيقة الأخيرة المخفيَّة في حياته قائلًا:

- عندمـا تزوَّجنا أنـا ووالدتكم، كنـتُ لا أملك من الدُّنيا سـوى تلك

الشَّـقة الصغـيرة التـي اجتهدت كثـيرًا للحصـول عليها.. وبعد شـهورٍ قليلـةٍ، وبعـد أن رزقنـا الله بأخيكم.. فكـرت مليًّا،

كيـف لي أن أوفِّـر حيـاةً كريمـةً لأسرتي وأنـا لا أملـك سـوى تلـك الجـدران وراتبـي المتواضـع؟.. فانبثقـت في رأسي تلـك الفكـرة، وهـي فكـرة ادِّخـار راتـب والدتكـم..

كنـت أنتظـر منها أن تسـألني أو تسـتفسر عـن آليـة الادِّخـار، ولكنَّها لم تسـأل.. وسـعدت بعـدم سـؤالها آنذاك.. فقـط كنت مشوشًـا، أبحث عـن أي وسـيلةٍ للادِّخـار.. ولأنِّي لا أملـك فنـون التِّجـارة، لم أحـاول أنْ أنشـئ عمـلًا خاصًّـا بي، وقـررت أن أدَّخـره بالطُّـرق المأمونـة، وهي الشَّـهادات.. قـدَّرت وقتهـا موقفهـا معـي وعـدم سـؤالها عـن راتبها.. فقـد كانـت وما زالت نعـم الزَّوجة.. كنـت أعطي القليـل ولا تعترض.

كنـتُ أخجـل من جَميلهـا كل يوم.. أنـا الرَّجل الذي أمـره الله بالقوامة عـلى الزوجـة، وبـدلًا من الالتـزام بها، أحصل عـلى مدَّخراتهـا.. في كثيرٍ مـن الأحيـان كنـت أفكـر في التَّراجـع عـن فكـرتي، وأنْ أردَّ لهـا أموالها، وأتـرك الأمر لله ثـم لظروف الحيـاة وقتها.

لكـن كانـت التزامـات الحيـاة تـزداد يومًـا وراء يـوم، ولا يمكننـي التَّراجـع.. وكنـت أتسـاءل: مـاذا لو تغـيَّر القلب بـين ليلـةٍ وضحاها.. وانقلـب الحـبُّ إلى بغـض؟.. ظللـتُ أفكـر وأفكـر حتى لمعـت الفكرة

في رأسي، وتوصلتُ إلى قراري، وهو تنازُلي عن نصف الشقة إلى والدتكم.

وقتها فقط شعرت أنَّني مرتاح البال.. لم ينتابني شعورٌ بعدها أنَّني أحصل على راتبها دون حق، بل شعرت أنَّني أتصرَّف في مالي لصالح أبنائي كما يتراءى لي.

اعتدت التصرُّف منفردًا في كل أمور الحياة دون الرجوع إليها، كما كنتُ طوال حياتي قبل ارتباطي بها.. وهي لم تعترض أو تُظهر أي رفضٍ بالقول أو حتى بالنَّظرات، ولم أُدرك حينها أن الزَّواج معزوفةٌ موسيقيةٌ لا يمكننا الاستماع إليها دون التحام العازف مع قِيثارته.

***

أنهى الأب حديثه بصوتٍ متهدج منهكٍ يملؤه الحزن والشَّجن.. ودَّعه الأبناء وبداخلهم ألمٌ تجاه كلٍّ من والدهم ووالدتهم.. كم هي قاسيةٌ تلك الحياة.. تحمل قلوبًا نقيةً وعقولًا مظلمةً.. فينتصر العقل على القلب أحيانًا..

وبعد مرور أيام قليلة.. بعد أن علمت الزَّوجة بما كان يدور في عقل زوجها.. ظلَّت في حالة تردد، فهي تنتظر قدومه لها معتذرًا... لكنَّه لم يأتِ..

جرحته دون أن تشعر.. تركت نفسها لوساوس صديقتها بعد أن أفضت لها بسرِّ حياتها.. تركت نفسها لغيْرة الأنثى تجاه زوجة ابنها..

واليوم، تترك نفسها لتلك الكلمة اللعينة المسماة (كرامتي)..

تنتظر قدومه أو مكالمةً مفادها: ارجعي.. انتظرت عدَّة أيام ثم لم تطق بعدها صبرًا.. اتصلت لكنَّه لم يُجب.. اتصلت مرةً تلو الأخرى.. لكنه لم يُجب..

قلقتْ.. ذهبت هي وأبناؤها لرؤيته، واستعادة حياتهم مرةً أخرى، لكنَّهم وجدوه ملقيًّا على الأرض بجانب فراشه.. متجمِّد الأطراف.. لا يحرك ساكنًا.. سكتت عن الكلام، وكأنَّها لم تعرف للحروف طريقًا..

أصابها الصَّمم.. كما لو لم تعرف للصوت رنينًا..

انعزلت عن الحياة.. لا تدري هل هي مَن قتلته يوم رحيلها..

أم هو مَن قتلها بعد موته!

فإن كان الزَّواج معزوفةً موسيقيةً.. فهل للقيثارة نغمٌ بعد رحيل عازفها؟!

وعلى الجانب الآخر، لم تكتفِ الصديقة بما وسوست به وعكَّرت

صفـو حيـاة صديقتهـا.. بـل بـدأت في إلقـاء اللـوم عـلى الزَّوجـة ناكرة الجَميـل.. الزَّوجـة التـي تركـت زوجهـا فقهرته حتـى الممات..

فتحـدَّث الابـن للجميـع.. أن قـرار انتقال والدتـه لم يكـن قرارها، بل كان قـرار والـده.. شـعورًا منه بدنوِّ الأجل.. وحتى يتسـنى لشـقيقته أن تـدرس ما تمنـاه لها يومًا دون مشـقَّة السَّـفر..

اليـوم فقـط، فهـم الابـن كلمة والـده.. ظـلَّ بحكمته وحسـن تدبيره، يديـر الحيـاة حتى بعـد رحيلـه.. ودَّ أن يخبره أنَّه عـازفٌ ماهـرٌ، وقيثارته لم يفارقهـا ألحانـه حتى بعـد وفاته.

(١٤) فنُّ اللامُبالاة

(١)

اجتمعت غنوة مع ابنيها ياسين ويوسف في غرفة نومهما مساءً قائلةً: «الأجازة دي أنا منتظراها من زمان يا ولاد.. عايزين نستمتع فيها كلنا».

فتساءل ياسين: «يعني هنسافر يا مامي؟».

ترددت غنوة في كلماتها: «إنت عارف كويس يا ياسين إن سبب الأجازة هي (فيروس كورونا).. إزاي بقى نسافر؟!! إحنا مش هنقدر نخرج أصلًا من البيت.

تمتم يوسف ساخرًا: «ياه! فعلًا يا مامي هتبقى أجازة رائعة!».

جذبته غنوة من مقدِّمة الكنزة قائلةً: «شكلك بتتريق عليَّا.. صح يا جو؟..

ضحك ياسين ويوسف بصوت عالٍ، فاستطردت غنوة: «أنا بقصد إننا نجتمع سوا يا ولاد.. نفطر سوا، نتفرج على مسلسل أو فيلم سوا. فرصة إننا نتشارك حياة أسرية كاملة، يعني الصبح أقولكم قوموا نفطر.. ألاقيكم قبل ما أكمل الكلمة على التربيزة.. فاهمين!!».

أشار كلاهما إليها بالإيجاب..

تركتهما غنوة في غرفتهما، وذهبت إلى المطبخ لتجهيز كلِّ ما تحتاج إليه صباحًا لإعداد إفطار مميَّز تبدأ به إجازةً جديدةً..

وفي الصَّباح الباكر، كانت غنوة في شُرفة غرفة المعيشة المطلَّة على بحر الإسكندرية الرَّائع.. تعدُّ طاولة الإفطار بعد أن زيَّنتها بشراشف على شكل مربعاتٍ صغيرةٍ باللون الأبيض والأحمر.. وبدأت في تحضير الفطور بما يناسب كلَّ فردٍ منهم..

فأعدَّت أنواعًا كثيرةً ومختلفةً كي تلقى قبول كلٍّ منهم.

انتبهت غنوة لصوت آسرٍ وعلمت أنَّه استيقظ من النوم؛ فتوجهت إليه مبتسمةً: «صباح الخير يا آسر.. على ما تغسل وشك أكون صحيت الولاد ونفطر كلنا سوا في الفراندا».

فأشار لها بالإيجاب دون أي تعبير.

ذهبت لإيقاظ يوسف وياسين.. وكالعادة استغرق استيقاظهم عدَّة دقائق لا تتعدى الخمس.

وذهبوا إلى الشُّرفة لتجد آسرًا قد أنهى إفطاره قائلًا: «أنا بحب البيض يكون طري مش مستوي قوي كده.

خلصي فطار وهات لي قهوة تركي».

ذهلت غنوة من كلماته، لقد أعدَّت كل تلك الطَّاولة لينتهي من طعامه قبل أن يجتمعوا!

شاهد ياسين تعبيرات والدته وتبادل النَّظرات مع يوسف الذي بادر قائلًا: «ياه يا مامي!.. إيه الفطار الشهي ده؟».

فبادله ياسين الحديث: «فعلًا، أنا كان نفسي في الكورن فليكس بالعسل جدًّا.. إيه ده، وبان كيك ونوتيلا كمان يا مامي.. إيه الدلع ده!»..

«مامي، متعمليش غدا النهارده.. لأننا مش هنقوم من على الترابيزة إلا بعد ما ننهي على كل الأكل»..

حاولت غنوة أن تلتهي مع أبنائها وتمحو من نفسها ما أصابها من خيبة أملٍ.

وفي صباح اليوم التالي، قرَّرت غنوة أن توقظ يوسف وياسين مبكرًا عن آسر كي يلتفُّوا جميعًا حول طاولة الإفطار.

وبعد أن أعدَّت الطَّاولة واستيقظ الأبناء، ذهبت لإيقاظه قائلةً:

«صباح الخير يا آسر.. الفطار جاهز يا حبيبي، والولاد قاعدين منتظرينك علشان يفطروا معاك».

أجابها بصوته الهادئ المتكاسل «هغسل وشي وجاي وراكِ».

دقائق وانضمَّ آسر إليهم على طاولة الإفطار.. ابتسمت له غنوة قائلةً: «البيض طري زي ما بتحب».

أشار لها عابسًا وهو يتمتم: «عايز فنجان قهوة علشان عندي صداع فظيع».

مدَّت غنوة يدها له قائلةً: «النسكافيه أهو».

أشار برأسه رافضًا: «عايز قهوة بن.. قهوة تركي يا غنوة، افهمي بقى».

نهضت غنوة من الطَّاولة وذهبت لإعداد القهوة.

ثم انضمَّت لهم حاملةً صينية القهوة، فوجدت آسرًا قد أنهى فطوره ونهض من مقعده ليأخذ منها فنجان القهوة، ثم تركهم وجلس في غرفة المعيشة حاملًا هاتفه يتصفَّحه كعادته دون أن يفارقه..

نظرت غنوة إلى ولديها وما زالت الصينية بين يديها وعلامات الخيبة باديةً على وجهها..

بدأ يوسف حديثه قائلًا: «مامي، أنا وياسين منتظرينك علشان نفطر سوا».

ابتسمت لهما بسمةً مرسومةً بصعوبةٍ، وبدأت تتناول فطورها مع ابنيها، وقطرات الدَّمع تتلألأ في مُقلتيها..

ولكن في صباح اليوم التالي، فوجئت غنوة باستيقاظ يوسف وياسين قبل أن تستيقظ، وقد أعدَّا كل ما استطاعا إعداده على طاولة الإفطار، ولكن فقط ثلاثة أطباقٍ.. وطبق رابع مغطى.

ضمَّتهما غنوة إلى صدرها بعد أن فهمت مطلبهما بعدم إيقاظ والدهما، وتوجَّهت معهما لتناول الطَّعام معًا.. تخلل أحاديثهم ضحكاتٌ ونكاتٌ عديدةٌ.

فاستيقظ آسر على صوتهم.. وتوجَّه إلى الشُّرفة ليجد أبناءه ملتفِّين حول غنوة يتناولون معًا الطَّعام في جوٍّ عائلي مبهجٍ.. فعاتبهم قائلًا: «إنتم يعني بتفطروا من غيري.. ولا كأنِّي موجود».

نهضت غنوة من مقعدها قائلةً: «إزاي! الفطار أهو، اتفضل»، ثم انسحبت إلى غرفة المعيشة لينضمَّ لها ابناها..

فنظر آسرٌ إليهم متسائلًا: «هو انا هفطر لوحدي؟».

فأجابه يوسف: «بس البيض طري أهو يا بابي، كمان القهوة التركي على التربيزة»..

لحظات وجاء ياسين إليه ركضًا حاملًا هاتف والده قائلًا:

«صاحبك يا بابي أهو. معاك تليفونك».

وتركه مثلما تركته غنوة ويوسف.. جالسًا منفردًا ينظر إلى طاولةٍ خاويةٍ من المشاعر، رغم احتوائها على كافة أنواع الطَّعام.

(٢)

بعد ثلاثة أسابيع من الحظر، قرَّر آسر أن يصطحب أسرته في نهاية الأسبوع لقضاء يومٍ مع الأهل في مسقط رأسهم (طنطا).

* داخل السيارة *

جلست غنوة على المقعد الأمامي بجانبه، وجلس يوسف خلفها، وياسين خلف والده.. أدارت غنوة زرَّ مشغل الأسطوانات على ألبوم هاني شاكر قائلةً: «الأغنية دي رائعة يا آسر، اسمع كده».

نظر آسر لها نظرةً ساخرةً، ثم أغلق الصوت من عجلة القيادة وهو يتعجب: «هو انتِ لسه صغيرة.. أغاني إيه، اكبري شوية وشوفي سنك».

صمتت غنوة بعد أن تبادلت النَّظرات مع ابنيها.. وذهبت بأفكارها

-بعيدًا عنه- في حياةٍ لم تعشها، وكانت تحلُم بها، وذكريات تهوِّن الواقع القاسي.

وفي أثناء الرحلة بدأ آسر الكلام قائلًا: «شكلنا هنطوِّل في الحظر ده.. لسه مفيش أي علاج أو تطعيم»..

لم يجد أي ردٍّ، فاستطرد: «أنا مش فاهم، التعليم اللي عندنا ده لازمته إيه، لا عارفين نواجه مرض ولا فيروس، هنفضل طول عمرنا دول نامية»..

انزلقت غنوة في مقعدها لأسف، وأمسكت هاتفها، وبدأت تتصفَّح الفيسبوك والإنستجرام؛ محاولةً تجاهل ما يردِّده على مسامعها كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ يقضيها معهم، لكنَّها حافظت على تلك الإيماءة من رأسها مع كل جملةٍ، وتؤكد بطرف لسانها قائلةً: «كلامك صحيح»..

لا يوجد حوارٌ يجمعهم منذ فترةٍ، إلا تلك الخطب المتكررة عن السياسة وعدم إيجاد فرصةٍ للمستقبل، النَّقد المستمر، لعدم تحمُّل المسئولية.. ولن تنتهي كلماته عند تلك النقطة، بل سيبدأ في نقد ابنيهما.

دقائق ورسمت ابتسامةً حزينةً على ثغرها وهي تستمع إليه يوجِّه كلماته إلى يوسف قائلًا:

– إنت مقدر المسؤولية إللي وراك؟.. مشغل التليفون على شوية أغاني هبلة! طيب شغله على قناة الأخبار الإنجليزية، على الأقل تقوي اللغة وتفهم الدُّنيا ماشية إزاي.. لكن هقول إيه، إنتم عايشين بدون التزامات، مش عارفين غير هات وبس، لكن تذاكروا وتفوقوا لمستقبلكم أبدًا.. إنتم لو عايشين برة، كلها كام سنة وتسيب البيت وتنزل تشتغل وتصرف على نفسك، لكن إحنا هنا مدلعين عيالنا.

ثم ختمها بندائه على ياسين قائلًا:

– إوعى تفتكر إن الكلام ده مش ليك، إنت خلاص كبرت وبقى عندك عشر سنين، ولازم تفوق لمستقبلك، إذا أخوك مش مهتم، فكر في نفسك، وإلَّا قسمًا بالله لأخرجكم من التعليم وابقوا انزلوا بقى اشتغلوا في محل كاوتش ولا ورشة ميكانيكا، هو انا هفضل كده لغاية إمتى، أنا عايز أعيش، العمر بيجري وانتم مش مقدرين.

ابتسمت غنوة وأشارت برأسها قائلةً: «صح كلامك.. جميل..».

وتمتمت ساخرةً: «أجازة رائعة».

(١٥) خَزائنُ السَّعادةِ

كانت

عادة والدي رحمة الله عليه.. اصطحابنا كلَّ عام لقضاء إجازة الصيف في مصيف رأس البر..

وفي إحدى هذه الرِّحلات، وعندما كنت في العشرين من عمري، ذهبتُ إلى أحد المتاجر لشراء بعض مُستلزمات المنزل..

وكعادتي، تركت حقيبتي داخل السَّيارة واكتفيتُ بحافظة النقود لدفع ثمن المُشتريات؛ لأتمكَّن من حملها بسهولة..

وأثناء وقوفي أمام الكاشير أو الخزينة، تحرَّك بجانبي شخصٌ بصورة فُجائية أربكتني، فسقط من يدي مفتاح سيَّارتي.. ولكنه لم يسقط فقط، بل سُرق في برهةٍ زمنيةٍ تقلُّ عن الدقيقة.. كان يقف بجانبي شابَّان، ولمحت أحدهما لحظة سقوط المفتاح يهبط لأسفل، ولكنَّ خجلي لم يجعلني أستطيع اتِّهامه أو مواجهته..

ولحسن حظِّي، كانت السيارة أمام المتجر مباشرةً، وكل مَن هم داخل المتجر أدركوا اختفاء المفتاح؛ لذا لن يستطيع سارقه أن يقترب من السَّيارة إلَّا بعد غلق المتجر وخلوِّ المكان من أي فردٍ..

ولأنني على علمٍ بعدم توافر النسخة الأخرى من المفتاح في السَّكن، لم يكن أمامي سوى الاتِّصال بأخي في بلدتي، فأحضرتُ كارت مناتل الذي كان يُستخدم في الكبائن المنتشرة في كل مكان آنذاك..

وبالفعل، اتَّصلت به من أقرب مكانٍ مواجهٍ للسيارة..

وأنا منهارةٌ من شدَّة البكاء لصعوبة الموقف على نفسي حينها.. فالسَّاعة الآن قاربت العاشرة والنصف مساءً..

فعنَّفني أخي لبكائي، وانفعل غاضبًا وهو يكرِّر:

لا تبكي.. سأرسل لك مفتاحًا آخر، وسأتَّصل بأبي يأتي إليك.. اهدئي.. لا أريد أن يراكِ أحدٌ من المارَّة وأنت تبكين..

لم تمرَّ سوى دقائق قليلةٍ ووجدت والدي مهرولًا إليَّ، فوجدتُني أنتفض مثل أي طائرٍ هُزم في معركة الطَّيران بتصويب صائده، فضمَّني داخل كتفيه قائلًا:

حصل خير.. لا تحزني يا حبيبتي.. ولا يهمك.. أنا معكِ.. لا تخافي.

وهممتُ بإخباره بما حدث.. فأشار برأسه إشارةً تعني الصَّمت..

ثم نظر إلى مالك المتجر، وهو على معرفةٍ قويةٍ به، وطلب منه طاولةً ومقعدين.. مع إحضار المثلَّجات المفضَّلة لي..

جلست أنا ووالدي وكأنَّنا في أحد الكافيتريات، نتسامر معًا.. وننتظر مَن يأتي لنا بالمفتاح.. ظلَّ والدي يقصُّ عليَّ الكثير من النوادر التي مرَّت بحياته.. وقضينا أكثر من ساعتين، لم أذكر فيهما

شيئًا عن السَّيارة وما حدث.. فقد أخذني الحوار مع أبي إلى عالمٍ آخر من الذِّكريات الجميلة.

ثم وصل الشَّخص المنتظر بالمفتاح، فانتبهتُ للأحداث مرةً أخرى، ونظرتُ إلى ساعتي فوجدتُها قد تجاوزت الواحدة صباحًا دون أن يتثاءب والدي أو يشعر بالنُّعاس، فهو لا يمكث مستيقظًا بعد السَّاعة الثانية عشرة بدقيقةٍ واحدةٍ.

فقلتُ له بأسًى:

تأخر الوقت كثيرًا عن موعد نومك يا أبي..

فأجابني بكلماته الرَّقيقة الرَّائعة مثله:

كانت سهرةً جميلةً.. استمتعت برفقتك منفردًا ساعتين.. واسترجعت ذكرياتٍ جميلةً معكِ.

ثم أعطى لي المفتاح كي أقود السَّيارة..

توفي أبي رحمة الله عليه.. وما زلت كلَّما سافرت إلى رأس البر ترافقني سعادتي التي خزَّنتها من علاقتي معه، والتي صنعتها مواقفه الرَّائعة معي.. والتي تتخطَّى هذا الموقف بكثيرٍ..

حقًّا إن الآباء هم خزائن السَّعادة الأبدية..

فلا يليق إنجاب الإناث لكلِّ الرِّجال... فقط من يملكون خزائن السَّعادة.

(١٦) أمِّي

لا أعلم هل كانت أمي تعلم أنَّ ما تفعله معي سيكون هو السبب الرَّئيس لما أنا عليه الآن.. أم أنَّها كانت تتصرَّف على فطرتها؟

فمنذ نعومة أظافري.. وليوم الجمعة طقوسٌ محددةٌ.. لا تتغيَّر أبدًا؛ فيذهب والدي لصلاة الجمعة مع أخي.. وعند قدومه أستقبله مهرولةً إليه، فأجده حاملًا قائمة طلبات المنزل، وتحت إبطه يخبِّئ تلك الجريدة، وكأنَّه يداريها عن الأعين.. ويتقدَّم إلى أمي في المطبخ سابقًا اسمها بكلمة يا ست (...) كنوعٍ من التدليل لها:

«اتفضلي بريد الجمعة».

وسريعًا أفهم من نظرة أمي لي، أن أحتفظ بها في غرفتها كي تتصفَّحها بعد أن تنتهي من إعداد الطَّعام وطلبات باقي الأسرة..

وبالفعل، بعد أن نتهي من الطَّعام.. نجلس جميعًا لاحتساء الشاي، وبين يديها جريدة الأهرام.. تجلس بهدوءٍ.. تبحث عن تلك الصَّفحة.. دقائق معدودةٌ وتترك أمي واقعنا، وتسافر محلِّقةً بعيدًا مع أبطال مشكلة الأسبوع..

أمكث في هدوءٍ أراقبها.. فأحيانًا أرى دموعها تتساقط على وجنتيها.. وأحيانًا أخرى أرى احمرار خدَّيها معلنًا عن ارتفاع ضغطها.. وفي النهاية تُغلق الجريدة ولا تنطق إلَّا بمقولتها الأسبوعية

«المشكلة النهارده صعبة جدًّا»..

أبدأ أنا وأخواتي نتساءل عن سبب صعوبتها.. كي تقصَّها علينا.. والإجابة التي لا تتغير كلَّ أسبوعٍ:

«معرفش أحكي.. اللي عايز يعرف.. يقرأ».

وبعدها نبدأ نحن الثَّلاثة بتبادلها بيننا.. وكنت أصغرهم عمرًا.. في الصَّف الثاني الابتدائي.. فأبدأ في تهجئة الحروف.. ودائمًا ما أستغرق يومين لإنهائها، لأنِّي أقرؤها على فتراتٍ.

وعندما أصبحت شابَّة، كنت أوَّل فردٍ في الأسرة يقرؤها.

كان بريد الجمعة وانفعالات أمي وعدم بوحها هو الدَّافع الحقيقي لعشقي القراءة..

وفي اعتقادي أنَّ الهواية تُكتسب بما يحيطك من ظروفٍ..

وبذكاء الآخرين.

(١٧) جفَّتِ العُيونُ

داخل أروقة الجامعة، التقى بها لأوَّل مرةٍ.. جذبته أنوثتها الناعمة.. رائحتها الفوَّاحة كزهرةٍ عطرةٍ في فصل الرَّبيع، تتبَّع خطواتها حتى تحين فرصةٌ تجمعهما.

حتى حانت اللحظة المُنتظرة.. اجتماع اتحاد الطَّلبة للترحيب بالطَّلبة الجدد، ومحاولة إشراكهم في بعض الأنشطة والأسر المتنوعة.

ابتسامةٌ ثم إيماءةٌ.. فتشجع قائلًا:

- صباح الخير يا آنسة.

وكأنَّها كانت في الانتظار..

أجابته بخجلٍ وبضربات قلبٍ صاخبةٍ:

- صباح الخير.

- أنا أحمد زميلك في سنة رابعة.

اكتفت بالابتسامة.

استكمل حديثه قائلًا:

- دفعة سنة أولى تحتاج إلى معرفةٍ بقواعد الجامعة، من أوراقٍ وكشفٍ طبي وغيره من الإجراءات، أنا هنا تحت أمرك.

- يا ترى بتهتموا بكل الدفعة؟

- يقوم عمل اتحاد الطَّلبة في الاساس على ذلك، هناك العديد من الأسر لخدمة الطَّلبه، تقدم رحلاتٍ وخدماتٍ أخرى عديدة.

أتمنى أن تستطيعي الحضور يومًا ما، فمن الممكن أن تنضمي إلى إحدى تلك الأسر.

- إن شاء الله..

- لم تخبريني بالاسم.

- ندى.

مرَّ شهر.. اتنين.. ٦ شهور..

ظلَّ يسهر الليالي على نغمات الأغاني، يتغنَّى بكلمات الحب والهيام.. يكمل باقي الحكاية في حلم كل ليلةٍ.. ثم اعترف لها: أنا بحبك.

ابتسمت بفرحةٍ وتلعثمت قليلًا قائلةٍ: كنت أعلم.

لم يبدُ عليكِ أنكِ تلاحظينني قط.

ابتسمت في حياءٍ وقالت: الحبُّ يكشف نفسه دائمًا.

- هل لقلبي فرصةٌ معكِ؟

- ألم أقل لك إنَّ الحب يكشف نفسه؟

مرَّت شهور وعاد يسألها كي يطمئنَّ قلبه:

- هل ستنتظرينني؟

- العمر كله.

- بعد انتهاء هذا العام.. وبعد أن أستلم أوَّل وظيفةٍ، سأتقدَّم للأسرة.

وبعد مرور ثلاث سنواتٍ.. وقف ينظر إليها قائلًا:

- أخيرًا اجتمعنا خلف بابٍ واحدٍ وتحت سقفٍ واحدٍ.

نظرت إليه بنظراتٍ مليئةٍ بالعشق متمتمةً:

- اليوم فقط تحقَّقت أحلامي..

- أعدكِ بالسَّعادة.. لن نفترق أبدًا.

- لن أعيش إلَّا بقربك.

(بعد ٣ سنوات)

استقبلته على باب منزلهم بلهفةٍ وهي تحمل ابنها على يدها، وآثار الحمل من تعبٍ وإجهادٍ باديةٌ عليها..

بشَّرها قائلًا:

– الحمد لله.. حصلت على عقد عملٍ.

ضمَّته بسعادةٍ وفرحةٍ كبيرةٍ:

– أخيرًا.. الحمد لله، متى سنسافر؟

– تقصدين متى سأسافر؟

نظرت إليه مصدومةً وتساءلت:

– هل ستبعد عنِّي وتتركني؟

أجابها:

– لم يكـن الأمـر بيـدي، فقط لمـدة عامٍ واحـدٍ.. حتى تلدي ثـم نجتمع معًا.

– ستتركني بالأبناءِ بمفردي!!

– عليـكِ أن تتحمـلي قليـلًا، فمن الصعب عـليَّ تركـكم، لكـن ما باليد حيلـة.. لا تصعبيها عليَّ.

تركتـه باكيـةً لا تسـتطيع أن تتخيَّـل أن تبتعـد عنـه لسـاعاتٍ وليـس لشـهورٍ وسـنواتٍ.

وجاء يوم السفر.. ودَّعته قائلةً:

- ستتصل بي كلَّ يومٍ وكلَّ ساعةٍ.

- أعدكِ..

بعد مرور خمسة عشر عامًا من الغربة وحيدًا..

انتهى وقت الدَّوام في تمام الساعة الثانية.. لكن كانت هناك أعمالٌ أخرى عليه أن ينتهي منها اليوم.. استمرَّ في الدَّوام حتى الساعة السابعة مساءً.. ثلاثة أيَّام على هذا النَّحو، ينتهي من العمل في السَّاعة السَّابعة.

وصل منزله منهكًا ومرهقًا لا يقوى على القيام بأي شيءٍ.. يتضوَّر جوعًا، ولا يملك أن يطهو طعام اليوم، ولا يقوى على الذَّهاب إلى أي مطعم ينتظر الطَّعام ثم يأكل ثم يذهب مرةً أخرى إلى البيت.. يشعر بالتَّعب.. يريد أن يصل إلى البيت فقط..

ينظر حوله، ما هذا البيت الكئيب؟ لم يكن يومًا بيتًا، فهو صحراءُ من دون حبيبة العمر ورفيقة الدَّرب وصغاره.. يفتقدها كلَّ يومٍ.. يتألَّم في صمتٍ فالوحدة قاتلةٌ، فما بال الوحيد الذي حرم نفسه من حبيبته! منذ خمسة عشر عامًا ولم يجتمعا كما كان يرسم ويتصوَّر حياته.. خمسة عشر عامًا منذ أن وعدها بالقرب ولم يفِ بوعده..

ماذا لو كانت معه؟ كانت الحياة ستصبح جنةً على الأرض و.. و..

قطع حديث النَّفس رسالةٌ على شبكة التَّواصل الاجتماعي (الواتس آب):

- بابا حبيبي، وحشتني..

- أفتقدك يا حبيبي..

- أريد أن أشكو لك من أمرٍ يغضبني؟

- ما هو؟

- المدرسة تعدُّ رحلة نصف العام إلى مدينة شرم الشيخ لمدة خمس ليالٍ فقط مقابل ٢٠٠٣ جنيه للفرد، وأمي ترفض اشتراكي أنا ونهى.. أرجو منك إقناعها.

أغلق الرَّسائل دون أن يجيبه.. يرى ابنه يرسل أكثر من رسالةٍ ينتظر الرَّد.. تلحقها رسالةٌ من ابنته لنفس الأمر.

ترك الهاتف وذهب إلى غرفته يفكِّر فيما قدَّمه منذ أعوامٍ وأعوامٍ..

شقَّة فاخرة.. مدارس دوليَّة وسيارة تحت المنزل.. لكنَّه حرم من أهمِّ شيءٍ في حياته، أسرته ودفئها..

ذهب إلى هاتفه واتَّصل بها مكالمةً مرئيةً.. يريد أن يعاتبها..

فتحت المكالمة.. نظر إليها فوجدها في غرفتها وحيدةً حزينةً.

سألها: ما بكِ؟ أرى عيونك ذابلةً..

بكت دون صوتٍ.. ثم ابتسمتْ بسخريةٍ وقالت:

عيوني ذابلةٌ!!..

خمسة عشر عامًا وأنا عيوني ذابلةٌ.. خمسة عشر عامًا وأنا أعيش على أمل أن نجتمع معًا..

خمسة عشر عامًا وأنا وحيدةٌ على فراشي.. خمسة عشر عامًا من العمر تناثرت أشلاؤها في وحدتي.. ذهب الشباب وبدأ الشِّيب يزحف إلى شعري.. شابَ الشَّعر قبل أن يعيش شبابه مع من اختاره قلبي.. ذبلت العيون قبل أن تتفتَّح.. جفَّت العيون قبل أن ترتوي.. مات العمر قبل أن يبدأ..

لكنَّه لم يردَّ على حزنها المسموع، فهو يتَّصل ليعاتبها، لكنَّه عاب على الزَّمن وعلى الحياة وعلى الغربة.. ونسي أنَّه من فعل وبإرادته.

(١٨) الإدراكُ

في إحدى رحلاتنا التي اعتدنا أن نقوم بها كلَّ شهرٍ لزيارة الأهل، مستقلِّين القطار، وقفت أنا وزوجي في سلامٍ نتأمل حركة القطارات، وأتفكَّر كعادتي في حياة راكبي القطار.. الوجهة التي يقصدونها، الغرض من الرحلة.. وأتخيَّل أسبابها ومشاعر المسافرين، ومودِّعيهم، حيث تتعدَّد الوجهات التي سيقصدونها، وتتعدد نوعيات البشر من حيث الهيئة واللهجات.. فوراءَ كلِّ مسافرٍ قصةٌ كنت أنسجها في مخيلتي.. انتبهتُ من شرودي على صوت زوجي وهو يشير إلى أحد القطارات قائلًا:

هذا القطار مسارُه خاطئٌ، لا بد أن شيئًا ما سيحدث له، دقَّقت النظر إلى صرامة وجهه وجدِّيته، وأنا أتعجَّب من رؤيته المظلمة دائمًا، وقلت له: لماذا تكهَّنت بذلك؟ يبدو وكأنَّه يسير مثل باقي القطارات، فأنا لا أرى به أي خللٍ ظاهرٍ.

صمت قليلًا وبيقينٍ قال لي:

- لن يسير هذا القطار في سلامٍ، لا بد أن يصطدم أو يحدث له شيءٌ.

استهزأت برؤيته وتشاؤمه الدَّائم، ثم ابتسمت ابتسامة الشامتين وأنا أرى القطار يسير في طريقه بسلامٍ قائلةً:

- أراه مرَّ من المنحنى بثباتٍ دون أي خللٍ، قلت لك كثيرًا: قليلًا

مـن التفـاؤل في نظرتـك ورؤيتك للأشـياء، ذلـك لن يـضرَّك بشيءٍ.

وبـدأ يظهـر جليًّا أمام ناظـريَّ القطار الذي أشـار إليه زوجـي، لم تكن هيئـة القطـار كباقـي القطـارات، بـل كان يبـدو وكأنَّـه عربـةٌ مكشـوفةٌ تحمـل العديـد مـن الأشـخاص الكادحـين.. عربـة لا يقيدهـا عـددٌ أو حمولـةٌ، بـلا مقاعد يقف فيها المسـافر طـوال الرِّحلة، يتلاصـق كلٌّ منهم في الآخـر.. يرفعـون رؤوسـهم بـين فينةٍ وأخـرى محاولين أن يستنشـقوا قليـلًا مـن الهـواء.. فتلفحهـم الشـمس بأشـعَّتها الحارقـة، ليخفضـوا رؤوسـهم مـرةً أخـرى، محتمـين بأجسـادهم المتعرقـة مـن نار الشَّـمس الحارقة.

وفجـأةً بـدأ القطـار يزيـد مـن سرعتـه قليـلًا.. فسـمعته بجانبـي يردِّد برعبٍ:

- الحاجـز المعـدِّني لم يفتـح بعـد، القطار سـيصطدم بالحاجـز المعدِّني.. بـدأ يـصرخ بصوتٍ أعـلى، لعل هنـاك من ينتبـه، دون أن أشـعر وجدتُ نفـسي أصرخ بجانبـه كـي يصل صوتنـا معًا..

ورأيـت مجموعـةً مـن الأشـخاص يعتلون سـطح القطار، قـد أصابهم الهلـع مـن صوتنـا، فألقوا بأنفسـهم مـن فوق القطـار خوفًا مـن احتراقه بهـم.. ومنهـم من قفز محـاولًا أن يجد من يعينـه على فتح الجـدار المعدِّني، تلفَّـت حـولي.. لم أجـده بجانبـي، وجدتُـه يهـرع ناحية الجـدار.. يصرخ

بصـوتٍ عالٍ:

– افتحوا الجدار.. افتحوا الجدار..

أوقفوا القطار.. أوقفوا القطار..

حتـى سـمعنا جميعًـا صـوت مَكابـح القطـار الهوائيَّـة، ليقـف القطـار ملامسًـا الحائـط المعـدِّني..

هرعت إليه أطمئنُّ عليه وأعتذر، فوجدتُه ينظر إليَّ معاتبًا ويقول:

– عزيزتي، الحياة لا تسـير بالتَّفاؤل والتَّشـاؤم.. الحياة تسـير بالإدراك.. تسـير بموازنـة الأمـور.. لن تسـتقيم حيـاةٌ كادحوهـا يُعاملـون معاملة الأنعام.

(١٩) فَطائرُ السُّكرِ

أمام النَّافذة المطلَّة على حديقة منزلي.. وعلى الأريكة الصَّغيرة، جلستُ أنا وحفيدتي معًا نعدُّ فطائر القرفة بالسُّكر التي نتشارك عشقها.. نتسامر معًا عن أحداث الفترة الماضية، فتحكي لي عن ملابس تريد شراءها، وعلى استحياءٍ تبوح لي برغبتها في اقتناء بعض أدوات الزِّينة.. وأمازحها قائلةً:

الزِّينة لمن يحتاجها، وأنها لا تحتاج لأنَّها رائعة الجمال..

فيحمرُّ وجهها خجلًا، وقد تحوَّل نظرها إلى الطَّريق القِبلي، وبدأت تتلعثم في الحديث قليلًا، فاسترقت النَّظر دون أن تشعر، فوجدته.. ذلك الشَّاب ذو السابعة عشر ربيعًا.. يلوِّح لها بباقةٍ من الزهور.. وهو يظنُّ أنني لا أراه..

أتذكَّر نظراتهما المتبادلة الصَّيف الماضي أثناء الاحتفال بزواج إحدى فتيات القرية..

أدرتُ لها ظهري لإخماء الفُرن قبل بداية مرحلة الخَبز، وأنا أحملُ بين جوانحي مشاعر تلك اللحظات المسروقة التي طالما حلُمنا بها ونحن فتياتٌ صغيراتٌ.. لذة ورجفة اللقاء الأوَّل بعيدًا عن كلِّ الأنظار.. تلك البرودة التي تصيب أوصالنا مع أوَّل لمسةٍ لليد.. القُبلات المسروقة تحت غصون الأشجار.. والحُمرة التي تصبغ

وجوهنا مع حرارة الأنفاس الهامسةِ وراء الأذن.

استدرتُ إليها قائلةً:

يبدو أن جدَّك لم يحضر الجبن الكريمي للتَّزيين، هل يمكنني أن أعتمد عليكِ في إحضارها؟

فظهرت علامات الفرح جليةً على عيونها. ليس لسهولة إحضار الجبن، ولكنَّها فرحة لقاء الحبيب. طالبتها بإحضار الجبن والعودة سريعًا.. لم تمهلني لأنهي كلماتي، ورحلَتْ دون أن تأخذ مني النُّقود..

ابتسمتُ للهفتها التي أعادت إليَّ ذكرياتي؛ فتلك الفرحة، طالما عشقتها، وتذكِّرني ببزوغ ضوء الشَّمس.. أثناء قضاء عطلتي الصَّيفية في مصيفي المفضَّل، حيث اعتدنا استئجار «شاليه» يطل على الشَّاطئ..

فكنت أتسلَّل من فراشي كلَّ يومٍ عند شروق الشَّمس، أرتدي ملابسي الفضفاضة وقبعتي الكبيرة، وأتوجَّه إلى الشاطئ، أجلس وحدي على أحد المقاعد المعدَّة للمصيِّفين هناك، أتأمَّل لحظات شروقها.. تلك الأشعَّة الأرجوانية التي بدأت تضيء السَّماء حولها..

أغمض عيني قليلًا لأحتفظ بجمال رؤيتها في الوجدان، لتداعب نسمات الهواء العليلة خُصلات شعري، فتُدغدغُ مشاعري..

وتُبهجني؛ فتنطلقُ بسمتي على وجهي..

أفتح عينيَّ فجأةً.. أراه أمامي ينظر إليَّ متأملًا ملامحي ليعترف لي هامسًا:

- اشتقتُ إليكِ.

تداعب أنفاسه الحارَّة وجهي، فأنتفض سريعًا خجلةً من مشاعري ولهفتي لضمِّه، لأقول له بصوتٍ متهدجٍ:

- متى أتيت؟

فيجيبني مبتسمًا:

- مع أوَّل شروق الشمس.

أقول له هامسةً:

- أحبُّ لحظات العمر تأتي مع كل شروقٍ للشَّمس.

- بل مع كل شروقٍ للشمسِ يولد أملٌ جديدٌ.. مع كل شروقٍ للشمس يتجدَّد حبٌّ كبير.. مع كل شروقٍ للشمس يتحقق حلمٌ نبيلٌ.

عُدت من ذكرياتي على صوت حفيدتي التي أحضرت الجبن وهي تقول مبتسمةً:

جدَّتي، كادت فطائرنا تحترق!

(٢٠) صَالةُ رِجَالِ الأعمَالِ

تحديدًا في مطار روما، وداخل منطقة الاستراحة الخاصَّة برجال الأعمال، كنت أجلس أحتسي قهوتي الصَّباحية في انتظار موعد إقلاع الطَّائرة المتوجِّهة إلى نيويورك.

كادت القاعة تخلو من المسافرين..

جلست أتصفَّح هاتفي، ثم بدأت أرى حركةً بالقرب مني، كنت حريصةً ألا أتابع الأشخاص المحيطين بي؛ نظرًا لتحذيرات زوجي المستمرة قبل السَّفر؛ كي لا أثير حفيظة أحدهم..

لكن دون أن أشعر، رأيتهما قادمين بالقرب مني، رجلٌ وزوجته، يبدو أنهما في نهاية العقد السَّابع من العُمر، يجلس كلٌّ منهما على مقعدٍ متحركٍ، شعرت بغصَّةٍ في صدري من أجلهما، وأنا أرى ضعفهما ووهنهما البادي على جسديهما..

وقف العامل أمام الرَّجل متسائلًا عن المكان المفضَّل له لإيصاله إليه، فأشار الرَّجل إلى منضدةٍ بجانبي، شعرت وقتها بالامتنانِ لاختيارهما الجلوس بالقرب منِّي، كي يتسنى لي متابعتهما ومساعدتهما إذا تطلَّب الأمر.

بدأ المساعدون في مساعدة العجوزين.. رفع أرجُلهم من فوق الحامل، ومحاولة وضعها على الأرض، تقريب مقعدٍ مريحٍ ووثيرٍ إليهما يمكنهما الجلوس فوقه بأريحيةٍ.. ثم نقل أمتعتهما على مقاعد مجاورةٍ..

ظللتُ أتابع حركاتهما وأنا أشفق عليهما من السَّفر الطَّويل مع

صعوبـة الحركـة دون مرافقـة أحـدٍ مـن الأسرة.

وسرحـتُ بخيـالي فيـما يمكـن أن يتعرضـا لـه أثنـاء الرِّحلـة؛ فالسَّـفر يتطلَّـب السرعـة في الحركـة.

وبـدأت أسـترجع السَّـاعات الماضية، حيـث إنَّني التقيـت بالعديد من الحالات المشـابهة لتلـك الحالة، لكـن كان معهـم مرافقون لهم.

دقائـق مـرَّت وأنـا أتابعهما عن كثـبٍ حتى رفـع الرَّجل قُبعتـه من أعلى الـرَّأس، فوجـدت تلـك القبعة السـوداء فـوق رأسـه.. فشـعرت بغصَّةٍ أخـرى تنتابنـي، وتجعلنـي أبـدأ في لملمـة أشـيائي ومتعلَّقـاتي للانتقـال إلى مقعـدٍ آخـر في نهايـة الصالـة، وقبـل أن أتحـرك بثـوانٍ، وقـف الرَّجل بصحـةٍ تفـوق صحـة شـابٍّ عـربي في الثلاثـين مـن عمـره، متوجهًـا إلى بوفيـه الطَّعـام.. لحظـات وانضمَّـت لـه زوجتـه، وأخـذا يتجـوَّلان في أنحـاء الصَّالـة كـما لـو كان في قـدم كلٍّ منهـما حـذاءٌ كهربائـي يمكنهـما مـن الانتقـال والحركـة سريعًـا.. وعـادا محمَّلـين بكلِّ مـا لذَّ وطـاب من طعـامٍ وشرابٍ، ووضعـاه أعلى منضدتهما، ثـم توجَّها مرةً أخـرى للبوفيه لإحضـار المزيـد، وهكـذا ظـلَّا لفـترةٍ طويلـةٍ يتجـوَّلان داخـل الصالة.

تذكَّـرت آنـذاك أنَّ مـن محتوى خدمـات تلـك الصَّالات توْفـيرَ خدمة المقعـد المتحرِّك.

الفهرس

(١) اللَّوْحَةُ ٥

(٢) الطَّريقُ ٢٧

(٣) غُصنٌ من الشَّوكِ ٣١

(٤) اللِّقاءُ الثَّاني ٣٥

(٥) الحُلْمُ ٤١

(٦) القَيْدُ ٤٧

(٧) فَريدة ٥٣

(٨) الجِسْرُ ٥٩

(٩) صَديقتي ٦٥

(١٠) الوَردةُ الحَمراءُ ٦٩

(١١) الاختياراتُ ٧٣

(١٢) ظَمأُ الرُّوحِ ٧٧

(١٣) عازفٌ بلا قِيثارةٍ ٨١

(١٤) فنُّ اللامُبالاة ١٠٣

(١٥) خَزائنُ السَّعادةِ ١١٣

(١٦) أمِّي ١١٧

(١٧) جفَّتِ العُيونُ ١٢١

(١٨) الإدراكُ ١٢٩

(١٩) فَطائرُ السُّكرِ ١٣٣

(٢٠) صَالةُ رِجَالِ الأعمَال ١٣٧